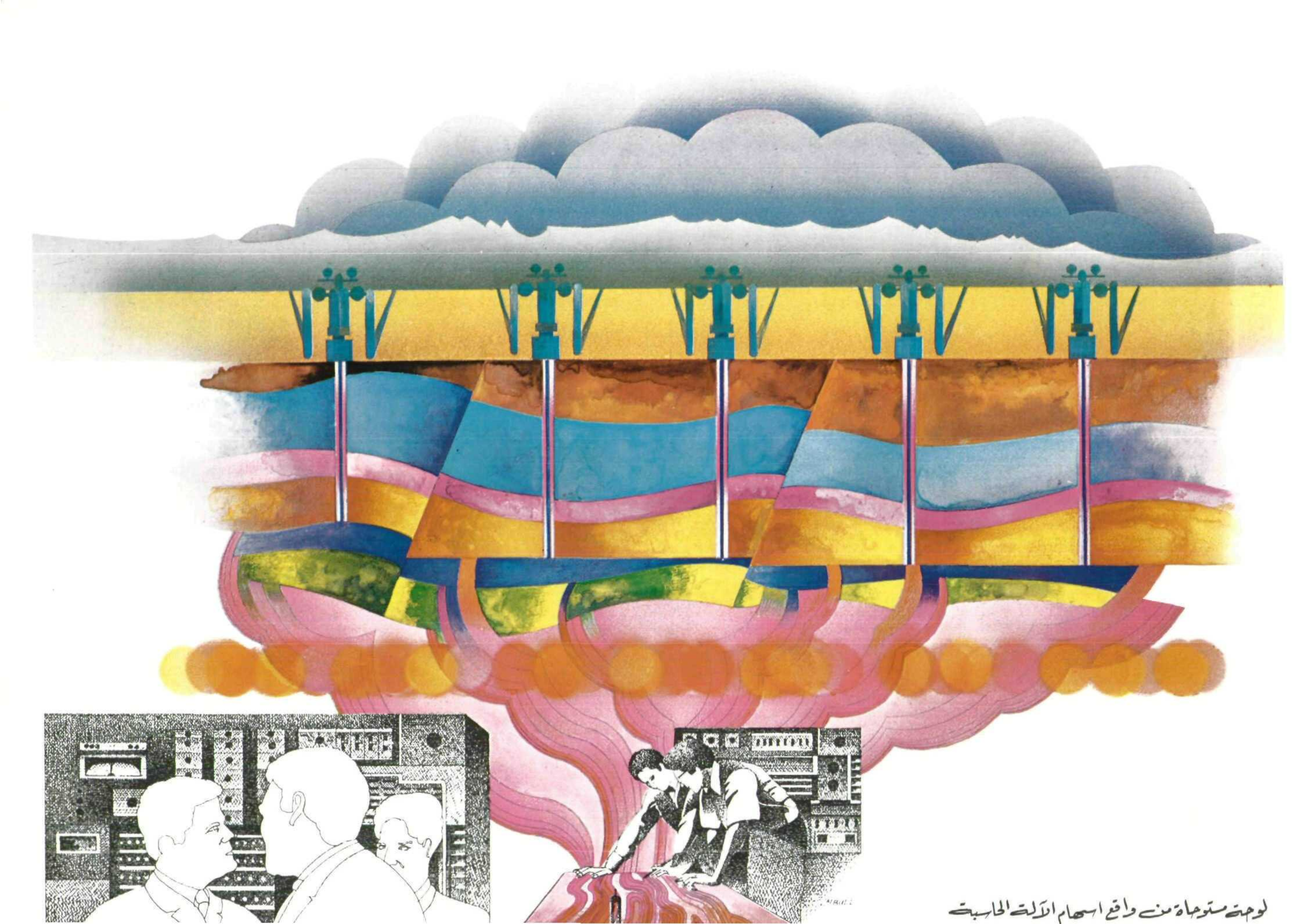

قافلة الزيت
جمادى الاولى ١٣٩٣ - يونيه ١٩٧٣



لوحة مستوحاة من واقع اسهام الآلة الحاسبة

بسم الله الرحمن الرحيم

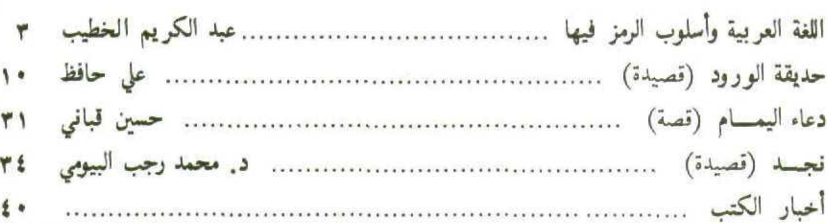
قافلة الزيت

العدد الخامس   المجلد الحادي والعشرون

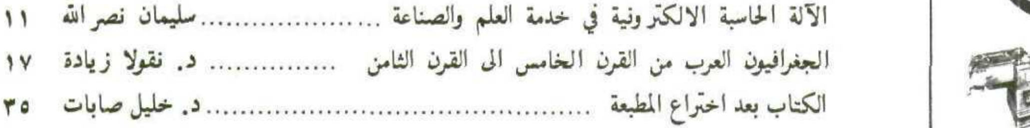
تصدر شهرياً عن شركة الزيت العربية الامريكية لموظفيها
ادارة العلاقات العامة توزع مجاناً
العنوان صندوق البريد رقم ١٣٨٩ الظهران - المملكة العربية السعودية

محتويات العدد

بحوث أدبية



بحوث علمية





إستطلاعات مصورة

- كل ماينشر في "قافلة الزيت" يعبر عن آراء الكتاب أنفسهم ، ولا يعبر بالضرورة عن رأي "القافلة" أو عن اتجاهها .
- يجوز إعادة نشر المواضيع التي تظهر في "القافلة" دون إذن مسبق على أن تذكر كمصدر .
- لاتقبل "القافلة" إلا المواضيع التي لم يسبق نشرها ، وهي تؤثر تلقي النسخ الأصلية مطبوعة على الآلة الكاتبة ، ومنقحة .
- يتم تنسيق المواضيع في كل عدد وفقاً لمقتضيات فنية لا تتعلق بمكانة الكاتب أو أهمية الموضوع .
- تنقيح المقالات على النحو الذي تظهر فيه يجري عادة وفق ظروف يقتضيها نهج "القافلة" .

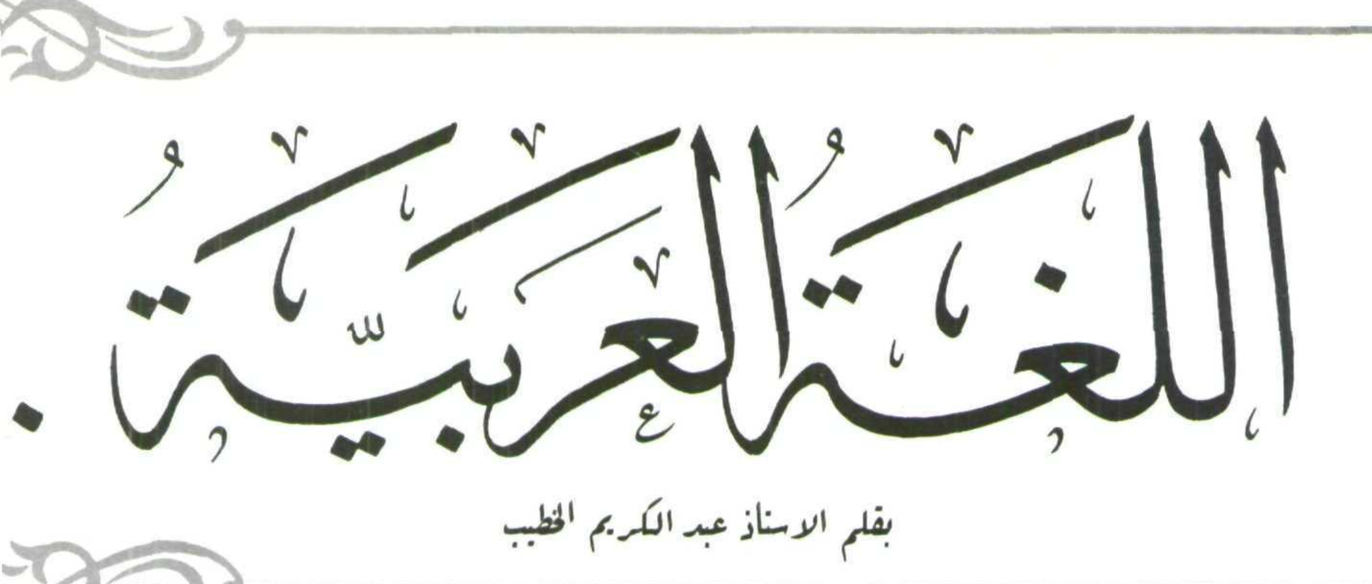
التعليق على صورة الغلاف



لقطات تمثل جانبا من نشاطات أرامكو خلال عام ١٩٧٢ .

المدير العام : فيصل محمد البسام   المدير المسؤول : عبد الله صالح جمعة
رئيس التحرير : منصور مدني   المحرر المساعد : عوني ابو كشك

AL-MUTAWA PRESS CO. DAMMAM, SAUDI ARABIA



اللغة العربية

بقلم الاستاذ عبد الكريم الخطيب

اللغة ومفهومها

اللغة ، كما نعهدها اليوم جارية على الألسنة ، أو مسطورة في الكتب ، ليست في حقيقتها الا رموزا الى ذوات الأشياء ، وحقائق المعاني ، وليست هي الأشياء ذاتها ، ولا المعاني بأعيانها .. فاذا قيل : « هذه شجرة » مثلا ، لم يكن لفظ « هذه » أو رسمها ممثلا لحقيقة الاشارة التي يشار بها الى الشجرة ، كما أن لفظ كلمة « شجرة » أو رسمها ، ليس هو ذات الشجرة .. وهكذا في كل الكلمات التي نطلقها على الأشياء والمعاني ، أنها مجرد رموز تواضع الناس على وضعها ازاء الحقائق والمعاني واتفقوا فيما بينهم على أن يتعاملوا بهذه الرموز ، أخذاً وعطاء ، على حسب ما حملوا كل رمز من دلالة على شيء من الأشياء أو معنى من المعاني ، تماما كما يتعاملون بقطع النقد الورقية أو المعدنية ، واحترام القيمة التي يحملها رمزها ، بيعا وشراء .. ومن هنا كان اختلاف الألسن ، وتعدد اللغات فكان لكل مجتمع انساني لغته الخاصة التي يتفاهم بها ، وينقل بها على لسان أفراده ، ما في عالمه الخارجي من محسوسات . وما في وجوده الداخلي من مشاعر ومدركات .

ومع اختلاف السنة الناس في التعبير اللفظي عن ذوات الأشياء وحقائق المعاني ، فان الأشياء في ذاتها ، والمعاني في حقيقتها ، ذات تصور واحد عند جميع الشعوب . لا يكاد يختلف هذا القصور الا باختلاف المعارف ، بين شعب وشعب وأمة وأمة .. كما هو الشأن بين معارف فرد وفرد ، في الشعب الواحد والأمة الواحدة ، بحيث اذا ذهب الناس الى نقل ذوات الأشياء ، وحقائق المعاني في صور محسوسة ، بالرسم ، أو النحت أو الموسيقى ، كانت صورتها تكاد تكون واحدة عند جميع الناس .. ولهذا كان الرسم ، والنحت والموسيقى لغة عالمية ، يتفاهم بها أبناء اللغات المختلفة ، والألسنة المتعددة على حين عجزت الكلمات عن أن تجمعهم على فهم واحد بالكلمة الواحدة لهذا الشيء من الأشياء ، أو لذلك المعنى من المعاني ..

ولهذا كانت اللغات في أول أمرها صمتا معبرا عنه بالصور ، بمعنى أن يكون التفاهم بين انسان وانسان للدلالة على شيء من الأشياء برسمه ، ونقل صورته كلها ، أو نقل أهم شيء يميزه عن غيره .. وأقرب مثل لهذا ما بقي من آثار اللغة المصرية القديمة « الهيروغلوفية » والذي ما تزال عليه الى اليوم اللغة الصينية ، التي يقوم من الكتابة الى الآن عند القوم شاهد عليها ..

كيف نشأت اللغة ؟

ولعلماء اللغات مباحث كثيرة ، ومقولات مختلفة في نشأة اللغة ، وهل هي توقيفية من عند الله ، بمعنى أن الله تعالى هو الذي أنزل هذه اللغات كلها ، وعلم الناس اياها ، كلمة كلمة ، وعبارة عبارة ، أو أن الناس هم الذين تعلموا هذه اللغات ، واستحدثوها بأنفسهم ، كما استحدثوا ما يلبسون من ملابس وما يبنون من بيوت ، وما يركبون من مراكب ، وما يستعملون من أدوات الى غير ذلك مما عمر به الانسان هذه الأرض ، وغير به من وجوهها ، فكساها ـ بما هداه اليه عقله ، وبما صنعته يده ـ هذه الأثواب الضافية من ألوان المدنية والحضارة ..

ولا بأس هنا من أن نشير اشارات لامحة الى بعض مقولات علماء العربية في هذا المقام ، اذ من هذه المقولات يظهر ما تنطوي عليه النفوس ، وما تضمه الصدور من تقدير لمكانة اللغة في الحياة ، ومن أثر بارز في تلك المنزلة التي أصبح بها الانسان سيد هذا الكوكب الأرضي ، والقائم على خلافة الله فيه ، فانه لولا اللغة ما بعد الانسان كثيرا عن عالم الحيوان ، ولما كان الا جنسا من أجناسها العليا فيها ..

هل اللغة توقيف من الله ؟

يقول أبو الحسين أحمد بن فارس في كتابه « فقه اللغة » : « اعلم أن لغة العرب توقيف ودليل ذلك قوله تعالى : «وعلّم آدم الأسماء كلها»· يقول ابن عباس : علّمه الأسماء كلّها ، وهي الأسماء التي يتعارفها الناس ، من دابّة ، وأرض ، وسهل ، وجبل ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها ..» ، ثم يقول ابن فارس : « ولعل ظانا يظن أن اللغة التي دللنا على أنها توقيف انما جاءت جملة واحدة ، وفي زمان واحد .. وليس الأمر كذلك ، بل وقف الله عز وجل آدم عليه السلام ، على ما شاء أن يعلمه اياه ، مما احتاج الى علمه في زمانه ، وانتشر من ذلك ما شاء الله .. ثم علّم بعد آدم من الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ ما شاء أن يعلّمه ، حتى انتهى الأمر الى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فآتاه الله من ذلك ما لم يؤته أحدا قبله ، تماما على ما أحسنه من اللغة المتقدمة ، ثم قر الأمر قراره ، فلا نعلم لغة من بعده حدثت ! ».

ثم يذهب ابن فارس في مقولته تلك الى أبعد

أسلوب الرمز فيها

اللباب

من هذا فيقول : « فاذا تعمّل اليوم لذلك متعمّل — أي زاد شيئا في اللغة — وجد من نقاد العلم من ينفيه ويرده ! ولقد بلغنا عن أبي الأسود الدؤلي أن امرأ كلمه ببعض ما أنكره أبو الأسود . فسأله أبو الأسود عنه فقال : هذه لغة لم تبلغك ! فقال له : يا ابن أخي ، انه لا خير لك فيما لم يبلغني .. فعرفه بلطف ان الذي تكلم به مختلق . وخلّة أخرى : أنه لم يبلغنا أن قوما من العرب ، في زمان يقارب زماننا ، أجمعوا على تسمية شيء من الأشياء مصطلحين عليه ، فكنّا نستدل بذلك على اصطلاح قد كان قبلهم . وقد كان في الصحابة ، رضوان الله عليهم — وهم البلغاء الفصحاء — من النظر في العلوم الشريفة ما لا خفاء به ، وما علمناهم اصطلحوا على اختراع لغة ، أو احداث لفظة لم تتقدمهم .. ومعلوم أن حوادث العالم لا تنقضي الا بانقضائه ، ولا تزول الا بزواله .. وفي كل ذلك دليل على صحة ما ذهبنا اليه من هذا الباب !! » ..

ولا شك أن هذا الرأي من ابن فارس مبالغ فيه مبالغة أملتها عليه العاطفة الحادة المنتشية بحلاوة اللغة العربية ، وباعجازها البين الذي حملته منها آيات القرآن الكريم المتحدية للناس أجمعين الى يوم الدين ، والا فلو كانت اللغة توقيفية من عند الله ، فكيف يفسر ابن فارس هذه اللغات التي لا حصر لها ، والتي تتوالد وتتكاثر كما يتوالد الآدميون ويتكاثرون جيلا بعد جيل ، وعصرا وراء عصر ؟ ثم لو سلمنا بأن اللغة العربية هي اللغة التوقيفية ، وأنها اللغة التي علّمها الله تعالى آدم ، عليه السلام ، فكيف يصحّ التسليم بأن أنبياء الله جميعا — وهم الذين يقول ابن فارس قد حملوا الى أقوامهم ما علمهم الله تعالى من لغة — كيف يصح التسليم بأن لغتهم كانت اللغة العربية ؟ فمن اذن علم الصينيين واليابانيين ، والهنود ، والأوروبيين ، والأفريقيين ، وغيرهم هذه اللغات التي لا تمت الى اللغة العربية بصلة من قريب أو بعيد ؟ ذلك ما تأباه طبيعة الحياة !

هل اللغة مما تواضع عليه أهلها ؟

هذا ، ويذهب « ابن جنّي » في كتابه « الخصائص » ، كما يذهب كثير من العلماء غيره ، الى غير ما ذهب اليه « ابن فارس » ، فيرى أن أصل اللغة لا بد فيه من المواضعة .. وذلك بأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا ، فيحتاجون الى الابانة عن الأشياء المعلومات . فيضعوا لكل واحد منها سمة ولفظا ، اذا ذكر عرف به ما مسماه ، ليمتاز به عن غيره ، وليغنى بذكره عن احضاره الى مرآة العين ، فيكون ذلك أقرب وأخف وأسهل من تكلف احضاره لبلوغ الغرض في ابانة حاله ، بل قد يحتاج في كثير من الأحوال الى ذكر ما لا يمكن احضاره ، ولا ادناؤه كالفاني ، وكحال اجتماع الضدين على المحل الواحد !! ... فكأنهم جاءوا الى واحد من بني آدم فأومأوا اليه ، وقالوا : « انسان » ... فأي وقت سمع فيه هذا اللفظ ، علم أن المراد به هو هذا الضرب من المخلوق .. وان أرادوا سمة عينه ، أو يده أشاروا الى ذلك وقالوا : يد ، عين ، رأس ، قدم ، أو نحو ذلك . فمتى سمعت اللفظة من هذا ، عرف معنيُّها ، وهلم جرا ، فيما سوى ذلك من الأسماء والأفعال والحروف ..

ثم ينتقل ابن جنّي من هذا التخصيص للمواضعة في العربية الى التعميم في غيرها .. فيقول : « ثم لك من بعد ذلك أن تنقل هذه المواضعة الى غيرها ، فتقول عن الذي اسمه « انسان » فليجعل مكانه « مرد » — ومرد معناه بالفارسية انسان — والذي اسمه : « رأس » فليجعل مكانه « سر » — وسر بالفارسية اسم للرأس — وعلى هذا بقية الكلام .. » ثم يقول « ابن جني » : « ولذلك لو بدئت اللغة الفارسية ، فوقعت المواضعة عليها لجاز أن تنقل ، ويولّد منها لغات كثيرة ، من الرومية والزنجية ، وغيرهما وعلى هذا ما نشاهده الآن من اختراع الصناع لآلات صنائعهم من الأسماء ، كالنجار ، والصائغ ، والحائك ، والبناء ، والملاح .. قالوا : ولكن لا بد لأولها — أي اللغة — من أن يكون متواضعا عليه بالمشاهدة والايماء .. »

وهذا الذي يقرره « ابن جنّي » هو لا شك الذي ينبغي التعويل عليه في هذا المقام ، لأنه هو الواقع الذي يعيش فيه الناس ، والذي تتخلق فيه اللغات ، وتتوالد وتنمو ، وتتعدد !!

اللغة محاكاة للطبيعة ، أو رموز دالة عليها ؟

وكما اختلف علماء اللغات في أصل اللغة ، وهل هو توقيفي من الله تعالى ، أو تواضعي من الناس ، فقد اختلف كذلك القائلون بالوضع في أصل هذا الوضع ، هل ولدت فيه الكلمات هكذا كما هي الآن ، أم أنها كانت مجرد أصوات تحاكي أصوات الأشياء نفسها ، ثم كانت

المرحلة التالية بعد هذا انتقالا من المحاكاة الى وضع الرموز الدالة على الأشياء في صورة كلمات لا أصوات حاكية لأصوات الطبيعة وأشيائها .. ونستطيع أن نقرر — في غير مجازفة — ان الأصوات الأولى التي خرجت من فم الآباء الأولين للانسانية كانت أصواتا حاكية يعبر بها الانسان عن الشيء ، أو الكائن الذي يريد الحديث الى غيره عنه مضيفا الى صوره الصوت الذي لهذا الكائن بعض الحركات والاشارات التي تمثل هذا الكائن ، أو تبرز بعض آثاره ، وأفعاله .. فاللغة أصلها ، كانت مجرد أصوات تتفاهم بها الجماعات الانسانية ، كما تتفاهم الكائنات الحية بأصواتها وهمهماتها ، وزقزقتها ، وتغريدها .. فلكل جنس من أجناس الحيوان وكل نوع من أنواع الطير ، وكل قبيل من قبائل الهوام والحشرات ، لغته الخاصة التي يتعامل بها مع أفراده ، وجماعاته ، فللحب صوته ، وللبغض صوته ، وللامان لغته وللفزع لغته ، وللسلم دعوته وللحرب دعوته .. وهكذا تجتمع الجماعة أو تتفرق ، وتقترب أو تبتعد حسب مفهوم الصوت الذي تسمعه من أبناء جنسها ..

واذا كانت تلك الأصوات المنبعثة من عالم الحيوان في جميع أحواله ، والتي نسميها لغة — قد جمدت على صورة واحدة منذ ظهرت عوالمه على هذه الأرض الى اليوم ، ودون أن يزاد عليها صوت ، أو ينقص منها صوت ، وذلك لأنها وليدة غريزة وفطرة لا يملك الحيوان من أمرها شيئا ، ولا يستطيع بحال أن يخرج عن هذا القالب الذي تفرزه الغريزة تلقائيا — اذا كان هذا شأن الحيوان مع لغته فان الانسان لما امتاز به من عقل مدرك ، ومن ارادة متحررة متصرفة ، قد استطاع أن يتصرف في هذه الأصوات التي وجدها على فمه أول الأمر ، وأن يصقلها وينميها ، ويغير ما يشاء من وجوهها ، كما يفعل ذلك في مواد الطبيعة التي أخرج منها هذه المصنوعات المختلفة الصور والألوان ، والتي لا تكاد تنتهي عند حد .. ومن هنا كان هذا التعدد والاختلاف في اللغات التي اصطنعها الناس .. فكان لكل أمة لغتها ، ولكل جماعة لسانها .

هذا ويقرر علماء اللغات أن في كل لغة بقايا من تلك الأصوات التي عاشت بها الانسانية في طفولتها .. وفي اللغة العربية بقايا كثيرة من الكلمات التي كانت أصواتا حاكية للأشياء التي كانت تدور فيها حياة الآباء الأولين للامة العربية .. ويذكر الثعالبي في كتابه « فقه اللغة » أمثلة كثيرة لهذا ، كدوي الريح ، وخرير الماء ، وصهيل الخيل ، ونهيق الحمار ، ونعيق الغراب ، ونعيب البوم ، ورغاء الابل ، وعواء الذئب ، ونباح الكلب .. وما الى غير هذا من أصوات الجمادات والأحياء ..

وأكثر من هذا فان كثيرا من علماء اللغة يذهبون الى أنه وان كانت محاكاة الأصوات هي أصل اللغة ، فان أثر هذه المحاكاة امتد بعد ذلك الى كثير من مفردات اللغة بعد أن أصبحت كلمات ترمز الى الأشياء ولا تحاكي أصواتها ، فكانت المناسبة بين الألفاظ والمعاني مما اعتمد عليه كثيرا في وضع الكلمة المرادة للدلالة على معنى من المعاني ..

وقد عقد ابن جنّي في كتابه « الخصائص » بابا لمناسبة الألفاظ للمعاني يقول فيه : « هذا موضع شريف لطيف ، قد نبه عليه الخليل وسيبويه ... قال الخليل : كأنهم — أي العرب — توهموا في صوت « الجندب » استطالة ومدا ، فقالوا : « صرّ » ، وفي صوت البازي تقطيعا ، فقالوا : « صرصر » . وقال سيبويه في المصادر التي جاء على وزن الفعلان : انها تأتي للاضطراب والحركة .. ومن أمثلة هذا : الغليان ، والغثيان ، والفوران ، والهيجان ، والدوران .. فقابلوا بتوالي حركات الأمثال ، توالي حركات الأفعال ..

اللغة العربية .. كيف وُلدتْ ، وكيف صارت ؟

نخلص من هذا الى القول بأن اللغة العربية بعد أن ظهرت في الأمة العربية على صورة أصوات حاكية للأشياء الدالة عليها ، شأن العرب في هذا شأن الجماعات الانسانية كلها في الشرق والغرب ، وأنه كما حدث في اللغات الحيّة الراقية من انتقال من الأصوات الحاكية الى الألفاظ الرامزة الى ذوات الأشياء ، والى حقائق المعاني — قد حدث نفس الشيء في اللغة العربية ، ولكن على صورة أوسع مدى ، وأبعد غاية ، وأتم بيانا ، وأدق تصويرا ، بحكم البيئة وبطبيعة الظروف والأحوال التي أثرت في العقل العربي وفي مزاجه ، وبالتالي كان لها التأثير في لغته ، وفي صبغها بهذا الصبغ الخاص مما سنبينه بعد ..

ونتجاوز تلك المراحل الأولى للغة العربية ، لنلتقي بها بعد أن بلغت مرحلة شبابها ونضجها فكانت لغة أدب وحكمة ؛ في الشعر الجاهلي لأصحاب المعلقات ، والمقطعات ، وفي الخطب والوصايا والأمثال مما يؤثر لقس بن ساعده ، وأكثم ابن صيفي ، وغيرهما ، ممن شارفوا عصر النبوة وآنسوا مطلع فجرها الوليد ..

فماذا نجد في اللغة العربية في هذا الدور من حياتها الذي استطاعت به ان تحمل كلمات الله وآياته في كتابه الكريم ، وأن تسع آيات هذا الكتاب المبارك الحكيم لفظا وغاية ؟

وأول ما يلقانا من الوجوه البارزة لهذه اللغة الشريفة المباركة ، أنها ذات دلالات واضحة صريحة ، بادية للعيان ، بحيث يلتقي بها أهلها على مفهوم واضح محدد ، لمفرداتها ، وتراكيبها ، حسب الوضع الذي تواضعوا عليه فيها ..

ولا شك أن للبيئة التي نبتت فيها اللغة العربية الأثر الأول لصبغها بهذه الصبغة الزاهية من وضوح مفاهيمها ، وانكشاف دلالاتها ، فكل شيء في البيئة العربية مطبوع بطابع التجرد والتعري حيث معالم الأشياء كلها مكشوفة للعيان ، لا يحجبها شيء ... الانسان ، والحيوان ، والنبات .. كل أولئك على بساط ممدود من بحار الرمال التي لا حدود لها ، فلا غابات ، ولا أدغال ، ولا كهوف ولا مغارات تحجب شيئا عن شيء ، أو ترد بصر كائن عن كائن ! !

فالوضوح المبين في اللغة العربية ، هو أبرز سماتها ، وأجمع صفاتها .. فكما لا يعرف العربي ، الذي نشأ في حياة البداوة ، مداراة شخصه ، أو مشاعره ، كذلك لا تعرف كلماته الاستحياء ، والتخفي في الابانة عن مدركاته ونوازعه ، بل ينطق بالكلمات هكذا صريحة واضحة ، غير مظللة بظلال من التعمية أو التخفي أو مغلفة بأغلفة من المداراة أو التلطف ..

ان القوة هي الطبع الغالب على هذا العربي ، القوة في البناء الجسدي ، والقوة في البناء العقلي والقوة في البناء النفسي .. فالقوة ومظاهر القوة تبدو واضحة في جسم العربي ، ونفسه ونوازعه .. يثب على الفرس وثب الفهد ، ويعدو وراء الوحش فيقيد أوابده ، وينطق بالكلمة فيخلع بها قلب العدو .. لا يعرف الهمس ، ولا التخافت .. انه يفكر بصوت عـال كما يقولون ! وقد جـاء الاسلام فأبقى على ذلك ابقاءه على الفطرة السليمة ، التي يعتدل بها ميزان الحياة في الأحياء ..

يروى أن عمر بن الخطاب — رضي الله عنه — نظر الى رجل مظهر للنسك ، متماوت في حركته ، متخافت في منطقه ، فخفقه بالدرّة قائلا : « لا تمت علينا ديننا أماتك الله ! ! »

ويروى أن عبد الملك بن صالح بن علي ، أتته وفود الروم ، فأخذ لهم مجلسه ، والجند بين يديه ومن خلفه ، ثم استدعى واحدا من رؤوس الوفد ، وفيما هو يحدثه عطس أحد الجنود عطسة أخفاها ، فلما فرغ من أمر الوفد دعا بالرجل

وقال له مؤنبا : هلا اذا كنت لثيم العطاس ، أتبعت عطستك صيحة تخلع بها قلب العلج ؟ .. والعلج عند العرب هو كل أعجمي !

ومدح العماني الشاعر ، هرون الرشيد ، فقال

جهير الكلام ، جهير العطاس

جهير الرواء جهير النغم (١)

ويخطو على الاين خطو الظليم

ويعلو الرجال بخلق عمم (٢)!

نقول هذا لنقرر أن حياة البداوة ، وما فيها من قهر وقسوة ، قد فرضت على العربي أن يعيش في دائرة الواقع ، وأن يواجه الحياة بكل ما في كيانه من قوى حتى يسلم له وجوده والا تداعت عليه نسور الصحراء وعقبانها ، وتعاورته ضباعها وذئابها ، ودمدمت عليه سوافيها ورمالها .. هكذا حياة البادية ، لا تدع للكائن الحي فيها أن يغفل عن وجوده لحظة ، والا تخطفته أيدي المنون المحدقة به من كل جانب ..

الكلمة العربية .. ومعطياتها

من هنا كانت الكلمة العربية ترجمانا صادقا لحياة الأمة العربية ، وما يدور في فلك هذه الحياة من خير وشر . وما تسقي به هذه الحياة أهلها من حلو ومر بحيث لو مثلت هذه الكلمة العربية شاخصة للعيان لرأى المشاهد لها حياة البادية بكل مشخصاتها وألوانها .. يشم فيها ريح شيحها وعرارها ويتنفس منها وقد هجيرها وسمومها ، وينسم منها انسام أصائلها وعشياتها ، ويسمع منها ثغاء شائها ، وحنين أبلها ، وعواء ذئابها ، وزقزقة عصافيرها ..

فاللغة في حياة الأمة العربية ، هي تاريخ أمة بأسرها .. هي عقلها المفكر ، وهي قلبها النابض ، وهي مشاعرها المتدفقة ، بل وهي يدها العاملة أيضا .. انها كل شيء عند الأمة العربية ، تمسك بوجودها كله ، وتستولي على كل خلجة منها. فما عرفت الحياة أمة من الأمم ، كانت الكلمة مالكة زمامها ، ومصرفة أمرها ، ونذير حربها ، ورسول سلمها ، كما عرفت ذلك في أمة العرب ، وفي لغة العرب ، منذ جاهليتها الى أن طلع عليها الاسلام ، ونزل بلسانها القرآن ..

وماذا كان يكون وضع الأمة العربية في هذه الحياة لو لم تكن « الكلمة » معها وعلى لسانها ، في هذه المرحلة الطويلة الشاقة ، عبر تلك الحياة الجافة الجافية ؟ انه لولا الكلمة لما احتمل العرب الحياة في الجزيرة العربية ، ولما قام لهم وجود على تلك الصورة ، التي جعلت منهم قبائل وعشائر ، ثم جمعتهم أخيرا على أمة واحدة ، تحمل لغتها — دون سائر اللغات — معجزة السماء الخالدة المتحدية في آيات الله وكلماته المنزلة على خاتم النبيين في كتاب الله الكريم ، بلسان عربي مبين .

في الأمم الأخرى — غير الأمة العربية — وجد الناس الى جانب الكلمة فنونا أخرى ، يصورون بها أفكارهم وآراءهم ، ويجسدون فيها خواطرهم ومشاعرهم .. فعرفت الأمم فيما عرفت من فنون الابانة والتعبير الخط ، والنحت ، والموسيقى ، والتمثيل .. وهذا كله الى ما عند هذه الأمم من وجوه كثيرة للسعي في الحياة ، والتنافس في وجوه العمل ، والافتنان في التوارد على ألوان الحياة وزخارفها ..

أما الأمة العربية في هذا الوادي غير ذي الزرع ، فلا شيء عندهم من هذا ، يستجيب لهم في يسر ويصحبهم على النشط والكره في الحل والترحال ، الا الكلمة ، والكلمة وحدها .

ان حياة البادية قد فرضت على العرب أن يعيشوا في فراغ ممل ثقيل ، اذ لا مجال للنشاط الانساني هناك غير تربية الحيوان ، أو بمعنى أصدق غير اقتنائه ، من غير أن يتكلف له صاحبه الا حمايته من الحيوانات المفترسة ، أو من غارة المغيرين من فتاكها ، ثم ارسالها بعد ذلك هملا ترعى حيث يوجد العشب والماء ، وقد كان أمر ذلك — فيما عدا الدفاع عن الحمى — الى الصبيان والاماء والعبيد !

أن حياة البادية ، وجفاف هوائها ، وتقلب جوها بين السموم المحرق ، والزمهرير القاتل — هذه الحياة من شأنها أن تبعث في الانسان العربي ، حيوية الجسم ، ويقظة المشاعر ، ورفاهة الحس ، وحدة الذكاء ..

ومع هذا الفراغ الثقيل ، وتلك الحيوية العارمة ، كان لا بد للعربي من متنفس تتنفس فيه طاقاته تلك الثائرة الفائرة ، والا كان الاحتراق ، ثم التحول الى حطام ورماد !!

وهنا يأتي دور الكلمة ، لتؤدي رسالتها العظيمة في هذا المجال ، حيث لا يملك العربي غيرها ، فلا نحت ولا رسم ، ولا خط ، ولا تصوير ولا موسيقى ، ولا تمثيل ، ولا شيء مما تسمح به الحياة المستقرة الآمنة ..

ومن هنا استطاع العرب بالكلمة أن يحملوا لغتهم كل ما تحمل الفنون الجميلة مجتمعة من ملهمات العقول ، وأسرار النفوس ..

فالموسيقى بألوانها ، وأنغامها ومقاماتها ، قد حواها الشعر العربي في تفاعيله وبحوره وقوافيه ..

والتصوير ، قد حمله البيان العربي بأصباغه وألوانه ، وشخوصه ، في صور مجازه ، وألوان بديعه .. والنحت ، قد تجاوزته البلاغة العربية بما أقامت ببيانها البين من صور شاخصة ، ناطقة ، تكاد تلمس باليد ، بعد أن تسمع بالأذن.

والتمثيل ، قامت الكلمة العربية فيه مقام الشخوص ، تغدو وتروح ، وتحاور ، وتجادل ، وتظهر ، وتختفي ، واذا المستمع لها بمشهد من مشاهد التمثيل ، لأبرع رواية ، وأعظم ممثلين !

وان لك بعد هذا أن تقول : أن خلوّ الحياة العربية من فنون النحت ، والتمثيل ، والموسيقى ، والتصوير ، انما يرجع الى سحر الكلمة العربية ، التي أغنت العربي عن الالتفات الى شيء غيرها ، مما يعدّه المستشرقون والمستعربون نقصا في الطبيعة العربية ، وقصورا في تركيبها النفسي ، يخف به ميزانها بين الأمم التي برعت في هذه الفنون ، وتمرست بها في قديمها وحديثها ، وما كان ذلك عن نقص في الطبيعة العربية ، ولا لقصور في تركيبها النفسي ولكن الأمر على ما علمت من هذا الثراء العريض في اللغة العربية ، ومن هذا السحر العجاب لكلماتها وعباراتها ..

يقول الجاحظ في كتابه « الحيوان » : « كل أمة تعتمد في استبقاء مآثرها ، وتحصين مناقبها على ضرب من الضروب ، وشكل من الأشكال ، وكانت العرب تختال في تمجيد مآثرها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون ، والكلام المقفى ، وكان ذلك هو ديوانها » .

ومن هنا لا نعجب ، ولا ننكر أن كانت القبيلة العربية تحيا أو تموت ببيت من الشعر ، في مدحها أو هجوها .. كما لا نعجب ولا ننكر أن كانت قبيلة « تغلب » مثلا تنشد في نهارها وليلها ، وفي حلها وترحالها ، وفي سلمها وحربها ، تلك المعلقة ، وهي القصيدة التي قالها فارسها وشاعرها « عمرو بن كلثوم » ارتجالا على البديهة ، في مواجهة الملك العربي « عمرو ابن هند » اللخمي ، ملك الحيرة ، في القرن السادس الميلادي . وقد كان كلف « تغلب » بهذه القصيدة ، وتعلقها بهذه المعلقة ، مما أهاج مشاعر بعض أعدائها من الشعراء ، فقال يهجوها ، ويعيب عليها أن تعيش بذكريات أمجادها الغابرة دون أن تستحدث في حاضرها مجدا تقيمه بأيديها.

ألهى بني جشم عن كل مكرمة

قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

---

(١) الرواء : الهيئة والمنظر (٢) الاين : الكلال والتعب ، والظليم : ذكر النعام .

يفاخرون بها مذ كان أولهم
يا للرجال لشعر غير مسئوم
ان القديم اذا ما ضاع آخره
كساعد فلّه الأيام ، محطوم

القرآن .. واللغة العربية

وقد جاء القرآن الكريم بلسان عربي مبين ، جاريا على أساليب العرب في مخاطباتهم ، ومحاوراتهم ومجادلاتهم ، وان تخير لذلك أصفى موارد هذه الأساليب ، وأعذبها منطقا ، وأشرفها معنى ، وأنبلها مقصدا ، وأكرمها غاية ، ثم أقربها فهما ، وأبعدها منالا ، حتى لقد أطمع هذا القرب العرب في تحديه ، فقالوا ما ذكره القرآن عنهم : « **لو نشاء لقلنا مثل هذا ان هذا الا أساطير الأولين** » ، وحتى لقد أعجزهم هذا البعد عن الوقوف بين يديه ، فولوا مدبرين ، وأعطوه أيديهم عاجزين مستسلمين ، بعد أن أذل كبرياءهم بالتحدي القائم عليهم : « **فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله** » . ومن هنا كان القرآن الكريم وجه اللغة العربية المشرق ، وروضها النضير المزهر المثمر تتفيأ ظلال أشجاره ، وتنشق عبير أزهاره ، وتتغذى من مبارك فاكهته ، ورحيق ثمره .

ومن هنا أيضا ظل اللسان العربي — في ضمان البيان القرآني — بعيدا عن الرطانة والعجمة ، كما ظل الطبع العربي — في صحبة هذا اللسان — متأبيا على قبول ما يعرض عليه ، ويساق الى ساحته من المعاني والأفكار الملفقة في أساليب طامسة المعالم مما يعرف عند الغرب اليوم بالأدب « الرمزي » أو أدب « اللامعقول » التي تختلط فيها وجوه الحقائق ، فيتأولها المتأولون كل حسب هواه ، دون أن يكون بين يدي أحد حجة على أحد فيما يتأول عليه هذا الحلم أو ذاك ، الأمر الذي تضيع به قيمة الكلمة وتفقد به اللغة سلطانها الذي تجمع به أصحابها على كلمة سواء في معطيات مفرداتها وتراكيبها ..

اللغة ، وأسلوب الرمز فيها

الرمز في اللغة ، معناه الاشارة من طرف خفي الى معنى من المعاني ، أو مقصد من المقاصد تقوم بين يديه شواهد ودلالات ، يتوسل بها أهل الفطنة والذكاء الى المعنى المراد ، على حين يظل هذا المعنى بعيدا عن متناول أهل الغفلة والبلادة ! !

فالرمز بهذا المعنى ضرب من الكلام خارج على مألوف ما تواضع عليه الناس من لغة التخاطب بينهم ، يقصد اليه قصدا في أحوال خاصة ، تعرض للناس فتحول بينهم وبين القول الصريح ، كخوف من سلطان أو لحرص على سر أن يذاع ويفتضح اذا عرض في مقولة صريحة واضحة ..

واذن فالرمز ليس لغة الحياة العامة ، وليس لغة العلوم والفنون ، والا انقطع حبل التفاهم بين الناس وجمدت معطيات العقول في القوالب الرمزية التي صبت فيها حقائق العلم والفن ، وأصبحت طلاسم يقف الناس ازاءها في عجز مطلق عن فتح مغالقها ، والوصول الى شيء مفيد منها ..

ومع هذا ، فانه لا تخلو لغة من اللغات من أن تحمل بعض أساليب الرمز فيها ، مما يكون من شأنه ايقاظ العقل ، وبعث كوامن الذكاء والفطنة فيه ، واثارة الوجدان ، وتحريك أشواق النفس نحو كشف المجهول ، واقتناص هذا الصيد الثمين بشباك الفطنة والذكاء ..

والقصد في الرمز ، والاجتزاء بالقليل منه في اللغة — سواء أكانت لغة تخاطب ، أو رسم صورة فنية — هو الذي يجعله سائغا مقبولا ، بل ومطلوبا مرغوبا .. على خلاف ما لو غلب على الأسلوب ، واحتلّ القدر الأكبر من حيز اللغة فانه يكون حينئذ منطقة ظلام كثيف ، يحجب الرؤية ، ويعمي على الناس السبل الى الفهم والتفاهم ..

أما لغة العلم ، فينبغي أن تتجرد من الرمز كلية ، وتخلص في مفرداتها وتراكيبها للتعبير عن الحقائق العلمية ، بالاسلوب الواضح الصريح ، المتواضع عليه ، بين أهل اللغة ، لأن غاية العلم الافادة لا الاثارة ، على خلاف الفن الذي يجمع بين الافادة والاثارة في آن معا ..

اللغة العربية وحظها من الرمز

وللرمز في اللغة العربية مكانه الذي يأخذه منها في دقة واحكام ، حيث يعدّ فيها — مع خفائه — ضربا من ضروب البيان ، ووجها من وجوه الفصاحة والبلاغة ..

وكما يكون الرمز أسلوبا من أساليب الافهام باللفظ ، يكون كذلك بالاشارة باليد ، أو الاماءة بالرأس ، أو الغمزة بالعين ، أو الحركة بالشفتين ، أو بانبساط الوجه أو انقباضه ، الى غير ذلك مما يغني عن الكلام في كثير من الأحيان ، ويكون في دلالته أبلغ من كل كلام ، كما قيل : « رب اشارة أبلغ من عبارة » ، وذلك اذا وجدت الاشارة متلقيا لها يحسن فهمها ، ويدرك مرماها ، وقد قيل « كل لبيب بالاشارة يفهم » .

وقد استعمل القرآن الكريم لفظ « الرمز » في مقابل الاشارة ، وعدّ الاشارة تقوم مقام الكلام في الافهام ، والابانة عن القصد المطلوب ، فقال تعالى لزكريا عليه السلام : « **آيتك الا تكلم الناس ثلاثة أيام الا رمزا** » .. وقد امتثل زكريا أمر ربه ، فكان حديثه الى قومه في تلك الأيام الثلاثة رمزا ، وصفه القرآن الكريم بأنه وحي ، اذ يقول تعالى : « **فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشيا** » ...

ومن معاني الوحي في اللغة ، الاشارة ، والرمز . الاشارة بالجوارح ، والرمز بالكلمات .. يقول الشاعر :

ولقد لحنت لكم لكيما تفهموا
ووحيت وحيا ليس بالمرتاب

واللحن ضرب من ضروب الرمز ، والخروج باللفظ عن معناه القريب الواضح ، الى معنى بعيد خفي ، كما قال تعالى في المنافقين ، الذين كانوا يتعاملون مع المسلمين بالكلمات المنافقة ذات الوجهين ، أو الوجوه الكثيرة : « **ولتعرفنهم في لحن القول** » ..

ومن معاني اللحن ، الفطنة والذكاء ، فيقال : رجل لحن — بكسر الحاء — أي فطن ، ذكي ، يحسن تصريف وجوه الكلام ، وفي الحديث الشريف : « **انما أنا بشر ، وانكم تختصمون الي ، ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من الآخر ، فأقضي له ، فمن قضيت لـه بشيء من حق أخيه ، فانما أقطع له قطعة من النار ، فليأخذها أو يدعها** » ..

ومن قبيل الرمز ، والوحي ، واللحن ، ما جاء في اللغة العربية من أساليب البيان في الاستعارة ، والكناية ، والتورية ، وكلها ضروب من الكلام ، لا تبوح بالمعنى في صراحة ، ولا تعرضه عرضا مباشرا ، بل تحمل المعنى مطويا في شيء من الغموض والابهام ، بحيث يحجب المعنى المراد عن أهل الجهل والغفلة ، على حين تنقدح منه شرارات مضيئة لذوي الذكاء والبصيرة ، تزيد المعنى وضوحا ، وحسنا ، وتكسبه قوة وتمكنا ..

ولا نتحدث هنا عن الاستعارة والكناية والتورية ، ولا نضرب الأمثلة لها ، ولا نقيم الأدلة على مكانها من البلاغة ، ووزنها في الكلام البليغ ، اذ كان أمر هذه الأساليب وقدرها ووزنها مما لا يخفى على من كان على صلة باللغة العربية وآدابها .. وانما الذي نودّ أن ننبه اليه في هذا المقام أن هذه الاساليب ليست شرطا لازما لبلاغة الكلام ، فقد يخلو الكلام جملة من أي منها ، أو منها جميعا ثم يكون في أعلى درجات البلاغة وأرفع منازل البيان !

والقرآن الكريم شاهد مبين لهذا ، فهو مع اتساع مداه ، وامتداد آفاقه ، ومع اعجازه القائم على أرباب الفصاحة والبيان الى يوم الدين ، هو مع هذا يكاد يخلو خلوا تاما من الكناية والتورية .. أما أسلوب الاستعارة فقد جاء كثيرا في القرآن الكريم ، لأنه من أساليب الاظهار والتوضيح ، لا من أساليب الرمز والخفاء ، اذ كانت الاستعارة مشتقة من صور التشبيه ، والتشبيه أظهر أساليب اللغة وأوضحها ..

ومع خلوّ القرآن الكريم من أساليب الرمز والتخفي ، ومع استطاعة كل ذي عقل سليم الاتصال به والفهم عنه فان هنالك معاني كثيرة لا تنفد أبدا وراء هذا المعنى الظاهر لكل ذي عينين.

أرأيت الى الشمس في سمائها وما ترسل من أنهار الضوء التي يسبح فيها الوجود ؟ أن الناس جميعا على سواء في هذا الذي يظهر لهم من الشمس ومن أضوائها المرسلة على الكائنات منها ، وأن هذا المستوى من النظر ليكفي في التعرف على هذه الظاهرة الكونية العظيمة .. ولكن وراء هذه النظرة نظرات ونظرات للمتوسمين والعالمين ، تجيء اليهم مع كل نظرة ينظرون بها الى الشمس والى ضوئها ، بعلم جديد في الفلك ، والهندسة ، والطب ، وفي علوم النبات والاحياء ، وأصل الأنواع .. الى غير ذلك مما كشفه العلم من الشمس وآثارها على الكوكب الأرضي وما يحمله من كائنات ..

ثم أرأيت الى البحر المحيط ، وما يبدو على صفحته التي لا تحدها العين ، من جلال وروعة ؟ ان الناس جميعا على سواء فيما تأخذه العين منه لأول نظرة ، وفيما يقع في النفس من خشية ورهبة له .. وفي حدود هذه النظرة ما يغني الانسان ويرضيه من هذا الكون العجيب المهيب .. ثم أن وراء هذه النظرة ما لا ينتهي من نظرات تبدأ من السطح ، ثم لا تزال تغوص وتغوص حتى تلمس القاع كاشفة كل ما يسبح في أعماقه وما يستقر على أرضه من عوالم الأحياء ، والنبات والجماد !!

ثم أرأيت الى الروض النضير ، تتشابك أغصانه، وتتدلى ثماره وتتمايل أزاهيره؟ أليست الوقفة عنده، والنظرة اليه، كافية في ملء العين مسرة ، والقلب بهجة ؟ ثم دع للعلماء والحكماء، والفلاسفة والشعراء ، يتلقون منه ما يتلقون من علم ، وحكمة ، وفلسفة ، وشعر .. فان فيما أعطتك اياه النظرة الواحدة علما، وشعرا، وحكمة وفلسفة !! انك قد أخذت كل أولئك جملة ، فانسكب في مشاعرك ، وهم قد أخذوا ما أخذوا فسكبوه على الورق علما ، أو حكمة ، أو فلسفة ، أو شعرا !

ولا تحسبن اننا نغمط في هذا من قدر العلم ، والحكمة ، والفلسفة ، والشعر ، ولا اننا ندعو الى الزهد فيها .. وكيف والله سبحانه وتعالى يقول : « **وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها الا العالمون** » ؟ وانما الذي نريده بهذا القول ، هو أن نقرر أن آيات الله القرآنية أو الكونية من حيث أنها لعباد الله جميعا ، فقد اقتضت حكمة الله أن تكون في متناول الناس جميعا فلا يقصر عقل عن ادراكها . ولا تعجز جارحة عن الاتصال بها ، والتناول من خيرها .. ثم الناس بعد ذلك على منازلهم منها حسب ما عندهم من فطنة وذكاء ، وما بين أيديهم من علم ومعرفة !

هكذا القرآن الكريم في آياته وكلماته ، لا تحجب أنظار العامة عنه ، ولا يحرم عقل من الاستنارة بنوره .. فاذا جاء العلماء اليه وسعهم جميعا ، على اختلاف معارفهم ، وأنزلهم بين يديه منزل المتعلمين دائما ، لا يصلون منه الى علم حتى يلقاهم منه علم جديد لا ينفد أبدا ، وهكذا على مر الأزمان وكر الدهور : « **ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله .. ان الله عزيز حكيم** »

وكل ما أثمرته اللغة العربية من ثمرات الأدب والحكمة — شعرا ونثرا — انما يرتفع في منازل البلاغة والبيان ، بما يعطي من معان متجددة تنكشف حالا بعد حال وان كانت الى نفاد وجفاف بعد زمن يقصر أو يطول ، شأنها في هذا شأن كل مخلوق أو مصنوع .. يقول الشاعر في وجه جميل :

يزيدك وجهه عجبا
اذا ما زدته نظرا

ويقول آخر في وصف حسناء :

تأمل العين منها
محاسنا ليس تنفد
وبعضها قد تناهى
وبعضها يتجدد !!

فهذا الحسن ، وذلك الجمال ، هما الى نفاد والى انقطاع ، على خلاف الحسن والجمال في كلام الله الحي بحياة الحيّ القيّوم !!

اللغة العربية والرمز .. مرة أخرى

فهل لنا بعد هذا — أن كان لا بد من اضافة الرمز الى اللغة العربية ، وعدة من أساليبها — هل لنا أن نقول : أن هذه المعاني المتجددة ، التي تنفذ اليها بصائر ذوي البصائر ، وتقطف ثمارها من الكلام البليغ ثمرة بعد ثمرة ، على حين يمسك عامة الناس منها بما يقع لهم من بواكير هذا الكلام البليغ ثم لا يطعمون من ثمره شيئا بعد هذه القطفة الأولى — هل لنا أن نقول أن هذه المعاني المتجددة هي من قبيل ما يسمّى رمزا ؟

ان يكن ذلك ، فاللغة العربية محملة بقدر كبير من الرمز ، وان أكثر ما يكون ذلك في الكلام البليغ . وأنه كلما علا الكلام، وسما الأسلوب في سماء البلاغة والبيان ، ازداد هذا القدر من الرمز فيه ، وأن المثل الأعلى في هذا هو القرآن الكريم ، الذي تتجدد معانيه وتتوارد حالا بعد حال ، بتجدد النظر في آياته وتوارد العقول والأفهام على موارده ، كما أشرنا الى ذلك من قريب .
يقول الزركشي في كتابه : « البرهان في علوم القرآن » : « كتاب الله بحر عميق ، وفهمه دقيق لا يصل الى فهمه الا من تبحر في العلوم ، وعامل الله بتقواه في السر والعلانية ، وأجله عند مواقف الشبهات » ..

ثم يقول الزركشي : « واللطائف والحقائق لا يفهمها الا من ألقى السمع وهو شهير .. فالعبارات للعموم وهي للسمع ، والاشارات للخصوص، وهي للعقل، واللطائف للأولياء .. والحقائق للأنبياء .. » ويقول أبو الدرداء : « لا يفقه الرجل حتى يجعل للقرآن وجوها !! » ويقول ابن مسعود — رضي الله عنه — : « من أراد علم الأولين والآخرين ، فليثور القرآن » أي يثير مكامنه ، وينقر عن معانيه ، ويفتش عن ذخائره !

ويقول بعض العلماء: «للقرآن نزول وتنزل.. فالنزول قد مضى ، والتنزل باق الى قيام الساعة .. »

ومن هنا اختلف الصحابة ، ومن بعدهم من علماء هذه الأمة في معاني الآية من القرآن الكريم فأخذ كل واحد بما ظهر له ، على مقتضى نظره ..

ويجمع هذا كله قول الرسول — صلوات الله وسلامه عليه —: «**ان القرآن ذلول — أي سهل سمح العطاء — ذو وجوه ، فاحملوه على أحسن وجوهه** » ..

وفي الكلام البليغ شيء من هذا الذي يعطيه القرآن الكريم من كريم عطاياه التي لا تنفد ، ولهذا كان المتنبي يقول اذا سئل عن معنى ما يخفى من شعره: «اذهبوا الى « ابن جنّي » فانه يقول لكم ما أردته ، وما لا أردته !! » .. يريد

المتنبي أن يقول أن الشعر الأصيل فن جميل وأن الفن الجميل يحمل في كيانه معاني كثيرة متعددة متجددة وراء الصورة الظاهرة للناس منه وأن عين العلماء هي التي تكشف مااستسر من المعاني التي تحملها الصورة الفنية بين ألوانها وظلالها ، والتي ربما لم يكن مصورها قد التفت اليها ، اذ كان للألوان والظلال — في ذاتها — اشارات ودلالات يقف ازاءها مبدع الصورة هو والناظر فيها على سواء ! كل يأخذ منها على قدر ما يرى ! !

الرمز والرمزيون

ذلك هو وجه الرمز في اللغة العربية ان كان لا بد — كما قلنا — أن يكون للرمز مكان فيها .. أنه رمز مستنبت في أرض الحقيقة يلده عقل واع ، ويمسك به ادراك يقظ ، وتصوره لغة سليمة ذات ضوابط محكمة ، تواضع عليه أهلها ، وتعاملوا بها أخذا وعطاء ، كما يتعاملون بالنقد وان كان بعضهم يحسن ما لا يحسن غيره في تثمير النقد الذي بين يديه والانتفاع به على أحسن الوجوه ، وأحكمها ..

أما الرمز الذي بلغ ذروته فيما يسمى أدب « اللامعقول » فلا تعرفه اللغة العربية ، ولا تتقبله طبيعة العرب الأصلاء المتعاملين بها ..

ان هذا الرمز هو وليد صدمات نفسية وعقلية من أثر الحياة التي عاشتها بعض الشعوب منذ مطلع هذا القرن .. هذه الحياة البعيدة عن الاستقرار والتي دمرت فيما دمرت بناء العقول ، ووحدة المشاعر ، بعد أن أتت على كل ما أقام الناس من عمران وما حققوا من آمال .. الأمر الذي تحولت فيه الحقائق الى أشباح رهيبة ، تطل على الناس هناك بوجوه منذرة بالدمار لكل ما تبقى للانسان من أمل في أن يجد وجوده ، وأن يظفر بشيء من الأمن والخلاص من هذا الكابوس المزعج الجاثم على صدره !

من هنا كان الهروب من كل ما يصلهم بهذا الواقع ، وبكل ما بقي من مخلفاته بين أيديهم .. فولدوا أدب اللامعقول الذي يعبث بالعقول على مسارح العبث ، متخذين من اللغة مسرحا للعبث بها ، وطمس معالم وجوهها .

هذا هو الرمز الذي استهوى الأغرار من المتطفلين على الأدب لدينا ، الذين رأوا سرابا خادعا فحسبوه ماء وهم على ظمأ ، لاكتساب الشهرة وكسب المجد بأي ثمن ، فتنادوا صارخين ، يندبون اللغة العربية ، ويبكون حظها ان فاتها هذا الثراء العريض من أدب « اللامعقول » الذي ازدهرت رياضه وأينعت ثماره في لغات الأمم في الشرق والغرب ! وفي كثير من أعمال هؤلاء — فيما يسمى عندهم بالشعر الحديث — صور فاضحة لهذا الأدب الرمزي ، أو أدب « اللامعقول » الذي تبعثر فيه الكلمات بغير حساب .

ان الرمزية التي ولدت أدب اللامعقول ، هي عند العقلاء في الغرب ، لغة اللاشعور ، لغة العقل الباطن ، لغة اللاوعي ، حيث الكبت الضاغط على العقل والشعور معا من اصطدام الأمل بالواقع الكئيب ، ومن احتراق الحاضر بلهيب المستقبل المظلم ومن الرتابة والملل اللذين يغشيان عالم الغرب ، بما تغشى فيه من ألوان الترف الرخيص .

هذا ، وكثير غيره قد انتزع من قلوب كثير من القوم ، الايمان بالله ، واليوم الآخر ، ذلك الايمان الذي يبعث الطمأنينة في القلوب ، ويسكب الرضا في النفوس ، الأمر الذي يخف به وزن الحياة الدنيا ، ويستساغ به طعم الموت ، وان كان مرا ، حيث بعد الموت حياة أخرى أبقى وأعظم ! ! هكذا يفعل الايمان بالله في قلوب المؤمنين .

وقد شرح الكاتب الأمريكي : « كولن ولسن » أدب « الرمز » أو « اللامعقول » ، اذ يقول : « ان حقائق الأشياء الكامنة في أعماق الانسان ، قد لا يستطيع أن ينقلها الى عالم الشعور ، فهو يستبطنها ثم يعبر عنها بأي أسلوب من أساليب التعبير التي ترضي شعوره ، ولا عليه الا يفهم أحد ماذا يريد بهذه الحركة أو تلك ، أو بهذه العبارة أو تلك » !

ان ما أحدثه الغرب من فتوحات عظيمة في العلم والفن شيء عظيم رائع ، هو شهادة عظيمة تعتز بها الانسانية ، وتقيم منها الدليل على عظمة الانسان ، وأنه أهل لأن يكون سيد هذا الكوكب الأرضي .. ولكن آفة هذه الحضارة الشامخة — شأنها شأن كل كائن حي — أن تتولد من كظتها وتخمتها هذه الجراثيم التي تنخر في كيانها ، والتي تفرز سمومها في هذا العقل الجبار الذي فتح تلك الفتوحات العريضة في العلوم والفنون ، لتفسده وتفقده رشده ، حتى يحلّ اللامعقول مكان العقل والمعقول !

ولقد قاوم هذه الحركات الهدامة المدمرة كثير من عقلاء القوم ، ووقفوا لها بالمرصاد ، فانحسر مدها ، وانحصر نشاطها في دائرة محدودة ضيقة يوما بعد يوم حتى تختنق وتموت ، ! انها موجة من موجات الزمهرير ، وعاصفة من تلك العواصف التي أعتاد القوم على استقبالها بين الحين والحين ، فتدمر ما تدمر من بيوت ، وتقتلع ما تقتلع من أشجار ، ثم تمضي موجة الزمهرير ، وتسكن زمجرة العاصفة ، لتأخذ الحياة طريقها المرسوم المألوف ! !

ولعلك تسأل بعد هذا : ما مستقبل الرمزية أو اللامعقول في الأدب العربي ؟

وأقرر لك في صراحة أن مستقبل الرمزية عندنا أشأم من حاضرها ، وأنها اذا كان لها اليوم مكان ما في عقول بعض الأغرار فانه لن يقدر لها أن ترى النور أبدا في أي مجال من مجالات الأدب .

ان أسلوب الكلمة المصورة المكتوبة هو من أساليب التستر والخفاء ، حيث تنفصل الكلمة بهذا عن صاحبها ، وتلقى الناس وحدها ، تكاد تكون مفقودة الصلة بصاحبها ، الذي يختفي — بشعور أو لا شعور — وراءها ..

ان اللغة العربية — كما قلنا — لغة صراحة ووضوح ، وقد تشكلت طبيعة أهلها الاصلاء بهذا اللون من الصراحة والوضوح ، فما عرف العربي الأصيل المواربة ، ولا نطق لسانه بغير ما يدور في عقله ، ويجري في خاطره ..

هكذا طبعت حياة البادية العرب ، ولغة العرب بهذا الطابع ، الذي أصبح طبيعة لا ينسلخ عنها العربي الا اذا انسلخ من جلده !

ان وضوح الحياة في البادية ، كان منها وضوح العربي في ملامح جسده ، وقوة نفسه ، الأمر الذي لم يجعل من عقل العربي ظاهرا وباطنا بل كان كل ما يجول في عقله ، ويجري في خاطره ينطلق على لسانه قولا ، وعلى جوارحه عملا ..

ولعل هذا ، هو الذي أزرى بمكانة الكتابة عند العرب ، وأخر ظهورها فيهم ، فكانوا أمة أميّة لا تقرأ ولا تكتب ، الى أن أدركها الاسلام ، وقد تفجرت من لسانها آيات البلاغة والبيان ، وجرت على فمها روائع الحكمة والأدب ..

ذلك أن العرب قد تجاوزت بكلماتها المجهورة المعلنة ، حدود الكلمة المضمرة ، المرقومة في رسوم أو المسطورة في كتاب ، حيث لا يجد العربي في الكلمة المصورة أو المكتوبة ما يحقق له الرؤية الكاشفة لنفسه والمواجهة الصريحة بآرائه ومشاعره ، للناس الذين يتعامل معهم ! ... ■

عبدالكريم الخطيب — القاهرة

حديقة الورود

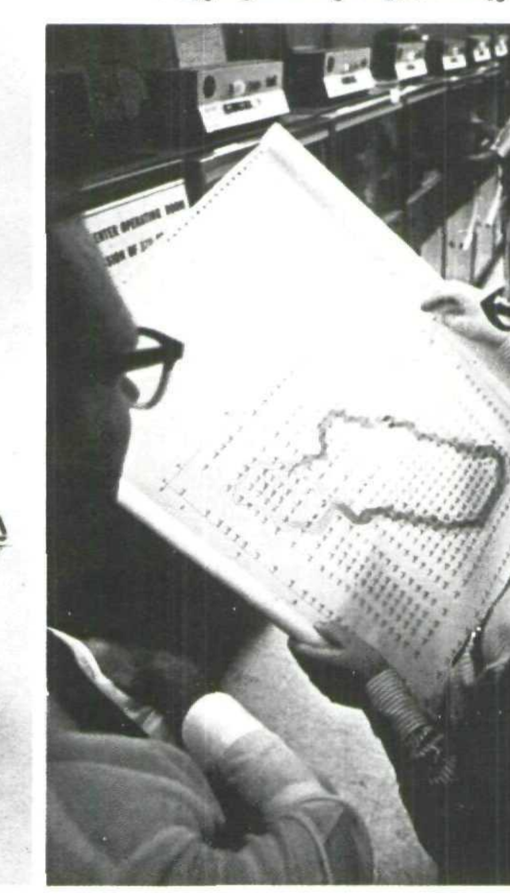
للشاعر علي حافظ

زهــرٌ على الوردِ ، أم وردٌ علــى زهــرِ ... زاهٍ علــى غصنِــهِ يهفُو الى السّمَر
ام سنُدسِ الــروضِ قــد مدّت جوانبــه ... كــمــا البساطِ بلا قُطنٍ ولا وَبــر
ام نرجسٌ يَشْتَكي من سوسَنٍ نَضُرَت ... زهــوره فانثَنَى يحنُــو علــى الثّمر
قاموا صفوفاً كمثِلِ الجَيْشِ كثرتُهــم ... ألوانُهــم بهجــةُ الألْبَابِ والبَصَــر
يستقبلونَ وفودَ النّاسِ فــي مَــــرحٍ ... وفي ابْتسامٍ ، وفي لُطْفٍ وفي خفَــر
أمْشي أشَاهِدُ صُنْعَ اللهِ فــي قَــــدَرٍ ... سويعــة لم تكنْ عِنْدي من العــمــر
بينَ الزّهورِ وبينَ الوَرْدِ مُــنْطَلِــقــاً ... استنشقُ العِطْرَ من ريّاهِمــا العطر
كلّ الورودِ به قد جُمّعَتْ وَنَمَــتْ ... تختَــالُ في جوّهِ المشحــونِ بالعِطْــر
في ظِلّــهِ لحمــام الأيْكِ مــرتبــعٌ ... وللطّيــورِ بلا خَوْفٍ ولا حَــذَر
كأنّهــمْ فِرْقَةٌ في الرّوضِ عــازِفَــةٌ ... لحنــاً بحَمْدِ إلهِ الكوْنِ والبَــشر
أو أنّهــم ملكــوا في الرّوضِ أرْصِــدةً ... مثلَ الأناسِ بلا ضَيْرٍ ولا ضَــرر
وفيهِ مِن قاصراتِ الطّرْفِ كَوْكَبَــةٌ ... اذا بَسِمْنَ أضَاءَ الثّغْرُ عــنْ دُرَر
مــنْ كــلّ فاتنةٍ كالبَــدرِ مُشْــرِقة ... في صَوْتِهَا لُغَةُ العُصْــفورِ والوَتَــر
وكالغُصون اذا ماسَتْ بما حَمَلَــت ... بل يَسْتَحــي الغُصْنُ في التّشْبِيهِ والصّور
كمْ قدْ أعَدْنا بذاك الروضِ في نَــهــمٍ ... ذِكْرى تُردّدُ بَيْنَ السّمْعِ والنّظَــر
وما البحيرَةُ الا مَسْرحٌ عَكَسَــتْ ... ذاكَ الجمالَ بظِلّ غيرِ منْحَسِــر
مرآةُ وردٍ وأغْصانٌ مُهَــفْهَــفَــةٌ ... تلاعَبَتْ فوقَ سطــحِ المــاءِ والجُزُر
اذا الــنّسيــم عليهــا مــرّ وانْتَعَشَــتْ ... عجّتْ بعِطْرٍ على الآفــاقِ مُنْتَشِر
يا حُسْنَهَــا روضةٌ هــلْ قدْ أعودُ لَهــا ... غداةَ أركبُ متْنَ الــرّيحِ للسّفَــر

علي حافظ – جدة

الآلــة الحاسـبة الالكترونيـة .

خريطة الكترونية تمثل أحد حقول الزيت .



صورة للآلة الحاسبة القديمة التي ابتكرها عالم الرياضيات الفرنسي « باسكال » (تصوير : بتمان

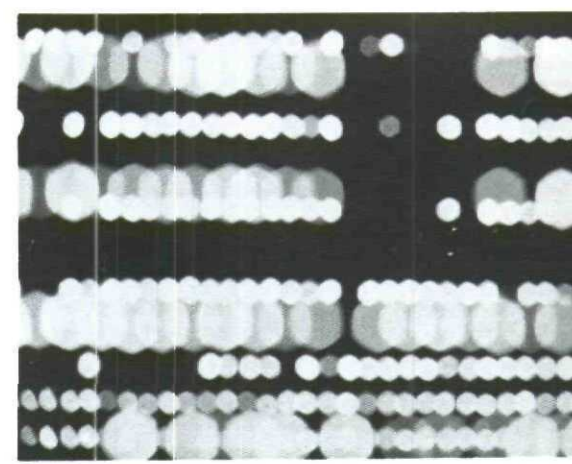
عندما تمكن « باسكال — Blaise Pascal » الفيلسوف والعالم الرياضي الفرنسي المشهور ، من ابتكار آلة حاسبة بسيطة عام ١٦٤٢م تساعده على اجراء العمليات الحسابية العديدة ، لاستنباط القوانين والنظريات الرياضية ، عدّ ذلك الحدث نقطة تحول في تاريخ الحضارة الانسانية ، وخطوة رائعة في ميدان التقدم العلمي . فقد فتح « باسكال » الباب واسعا أمام غيره من العلماء والباحثين لتطوير تلك الآلة البسيطة ليفيد منها الانسان في أموره الحياتية بشكل أوسع وأدق . والآلة التي اخترعها « باسكال » كانت تدار بمجموعة من العجلات والتروس دل نظام تركيبها على قدر كبير من البراعة والاتقان . ومع أن حاسبة « باسكال » اقتصرت على عمليتي الجمع والطرح في الرياضيات ، الا أنها أثبتت بشكل عملي أن « مكننة » العمليات الحسابية ممكنة . وعلى الدرب ذاته سار « ليبنتز — Gottfried Wilhelm Leibnitz » فأكمل ما بدأه « باسكال » اذ استطاع أن يخترع أول آلـة تقوم بعمليتي الضرب والقسمـة في الحساب ، واضعا نصب عينيه « مكننة » العمليات الحسابية الخاصة بالجداول الفلكية وعلم المثلثات ليتفرغ العلماء الى أعمال أجدى وأنفع . وبذلك كان عمل « باسكال » و « ليبنتز » ، على بساطته ، اذا ما قيس بالحاسبات الألكترونية المعقدة ذات الفعالية الفائقة اليوم ، حجر الأساس في ذلك الصرح العلمي الشامخ . فقد توالت بعدهما الأبحاث العلمية والدراسات التكنولوجية ، وتناول العلماء حاسبة « باسكال » و « ليبنتز » بالتحسين والتطوير . فكان من الرواد الأوائل في هذا الميدان العالم الرياضي الانجليزي « تشارلز بابيج — Charles Babbage » الذي فاز عام ١٨٢٢ بالمدالية الذهبية من جمعية الفلك الملكية تقديرا لبحوثه العلمية المتقدمة .

امتاز « بابيج » بعقل نير حاد الذكاء ، وعزيمة ماضية لا تعرف الحدود ، حتى أنه ، في رأي مؤرخي العلوم ، سبق عصره بمراحل عديدة . فقد توصل « بابيج » الى وضع تصميم لآلة تحليلية « Analytical Machine » تعمل بالبخار ، وتستطيع حفظ ألف رقم عن ظهر قلب ، وعملهـا شبيه بعمل الآلات الحاسبة

خدمة العلم والصناعة

إنّ التقدّم التكنولوجيّ الهائل الذي نشهده اليوم مدين الى الآلة الحاسبة الإلكترونيّة في كثير من مظاهره، فقد غدت من الوسائل الفعّالة التي يُعوّل عليها في إنجاز شتّى العمليّات الحسابيّة والمنطقيّة في سرعة خياليّة ودقّة مذهلة يعجز حتى العقل البشريّ الذي ابتكرها عن إنجاز تلك المهامّ بنفس الكيفيّة من حيث الدّقّة والسّرعة والإتقان .

هكذا تبدو ضغوط المكمن من الحاسبة الألكترونية ..



0	1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12
1	2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13
2	3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14
3	4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15
4	5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16
5	6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17
6	7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18
7	8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	19
8	9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20
9	10	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20	21
10	11	12	13	14	15	16	17	18	19	20	21	22
11	12	13	14	15	16	17	18	19	20	21	22	23

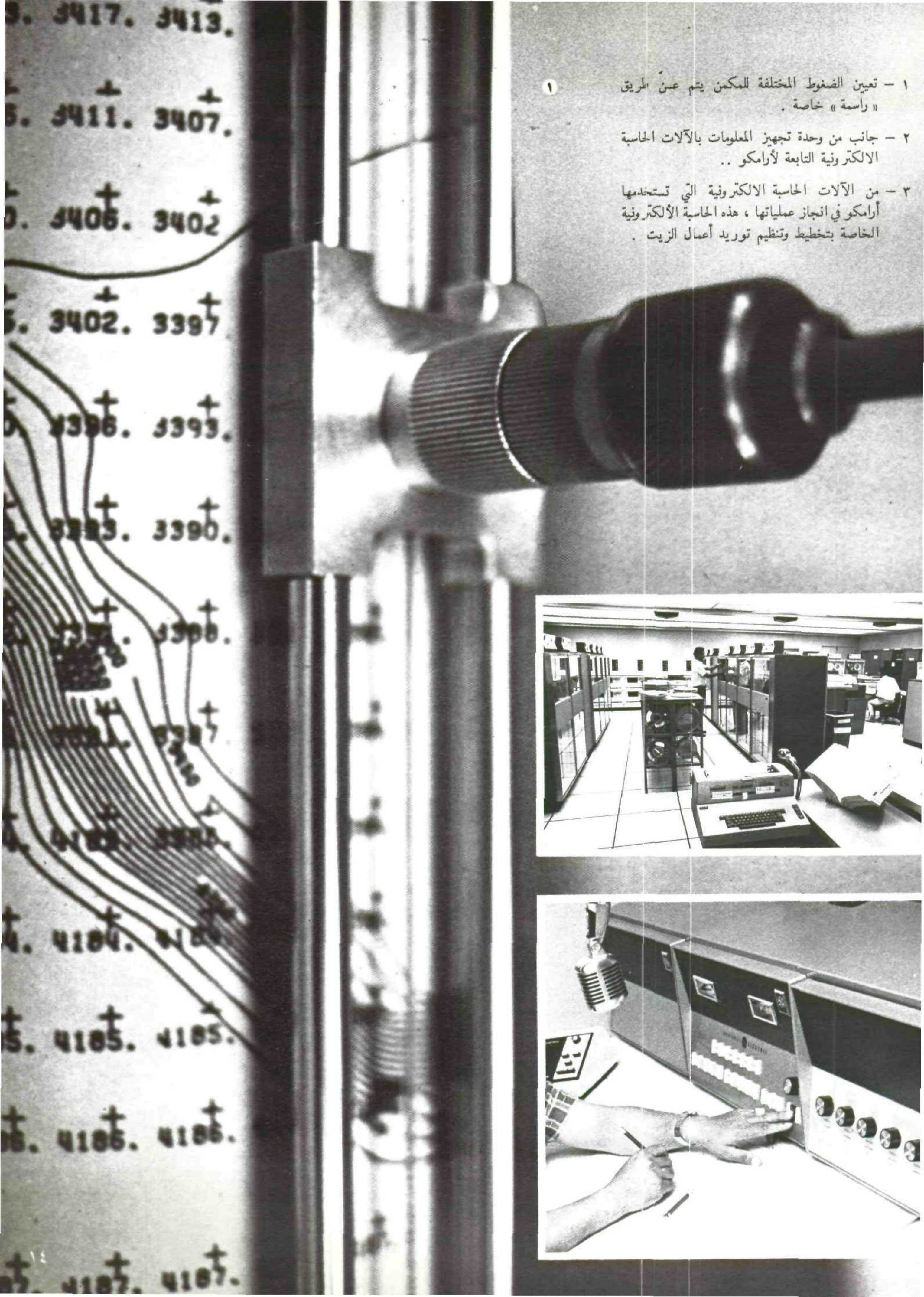
صورة للآلة الحاسبة التي ابتكرها عالم الرياضيات الاسكتلندي «جون نابير» والتي ذكر أوصافها في كتابه الذي يرجع تاريخه الى عام ١٦١٧م . **(تصوير : بتمان)**

الألكترونية الحديثة من حيث أنها تشتمل على الوحدات الأساسية وهي : وحدة تخزين المعلومات أو ما تسمى بالذاكرة، ووحدة العمليات الحسابية، ووحدة تلقيم المعلومات ، ووحدة المحصلات التي تعطي النتائج النهائية. تلك الآلة التي تخيلها « بابيج » بثاقب فكرة لم تر النور في حياته ، اذ لم يكن من اليسير صنعها في عصره لعدم توفر المواد الأساسية من ناحية ، وضعف الصناعة آنذاك من ناحية أخرى. وكل ما استطاع « بابيج » اتمامه كان عبارة عن نموذج صغير لآلة حاسبة هي الآن مجموعة من العجلات والقضبان موضوعة في ركن خاص في متحف العلوم في لندن . ثم جاء الدكتور « هرمان هولاريت Herman Hollerith » الأمريكي ليحقق في أواخر القرن التاسع عشر أحلام « بابيج » ، فدفع بالآلات الحاسبة الكهروميكانيكية خطوة كبيرة الى الأمام بادخاله البطاقات المثقوبة لعملية حفظ المعلومات واستعمالها وتجهيزها . وبفضل ذلك تمكن « هولاريت » من حل مشكلة معقدة كانت تعانيها حكومة الولايات المتحدة عندما كانت تقدم على اجراء الاحصاء السكاني العام . فقد أصبح انجاز ذلك العمل يتم بسرعة فائقة في حين أنه كان يستغرق نحو عشر سنوات بالوسائل التقليدية المتبعة في ذلك العصر . ومع أن البطاقات المثقوبة لا تزال تؤلف عنصرا مهما في تلقيم الآلات الحاسبة بالمعلومات ، الا أن هناك وسائل أخرى متقدمة تستعمل اليوم ، منها الأشرطة المثقوبة ، والأشرطة والأسطوانات الممغنطة . فقد كان لتقدم العلوم الألكترونية الفضل الأكبر في تطوير الآلات الحاسبة وانتقالها الى مراحل أكثر فعالية وأسرع انجازا . وليس أدل على السرعة الهائلة التي يتم فيها تجهيز المعلومات من أن نعرف أنه بتوفر « حاملات الأسطوانات الممغنطة — Disc Packs » أمكن نقل المعلومات منها الى مركز تجميع المعلومات في الآلة الألكترونية بمعدل يزيد على مليون حرف أو رقم في الثانية الواحدة . وحتى هذه السرعة أخذت تتضاءل أمام وحدات تجهيز المعلومات الحديثة التي أصابها من التحسين ما جعل انتقال ملايين الاشارات الواردة اليها يقاس بالمِلّي ثانية (جزء من ألف جزء من الثانية)، أو بالميكرو — ثانية (جزء من مليون جزء من الثانية) ، أو النانوثانية (جزء من بليون جزء من الثانية) . فعلاوة على حاملات الأسطوانات الممغنطة ، هناك وحدة تخزين المعلومات بواسطة النوى المغنطيسية « Magnetic Core » ، والذاكرة المونوليثية « Monolithic Memory Storage » لحفظ المعلومات التي تم تطويرها مؤخرا ، وهي عبارة عن وحدة متراصة متماسكة تعتمد على توصيلات الكترونية متناهية في الصغر « Micro Miniaturized Circuits » يتم بواسطتها ، استيعاب المعلومات ونقلها بسرعة أعظم . وقد أدى التوصل الى استخدام مثل تلك التوصيلات الألكترونية الدقيقة الى صنع آلات حاسبة الكترونية بالغة الصغر ، ذات طاقة تخزين للمعلومات عالية لدرجة يمكن معها وضعها في الجيب ، وهي من النوع المستخدم في الأقمار الصناعية والمركبات الفضائية وفي أغراض أخرى مماثلة .

والآلات الحاسبة الألكترونية اليوم تحتل مكانة مرموقة في شتى المشاريع العلمية والصناعية ، فقد أخذت تنتشر انتشارا سريعا في مجالات كثيرة من النشاط البشري ، ولا سيما في السنوات العشر الأخيرة . فأصبح اعتماد الانسان عليها كبيرا ، ففي عصرنا الحاضر الذي تتسم فيه الصناعات العديدة والمشاريع العلمية الواسعة بالتعقيد والتشعب ، يتعذر على الانسان ، مهما بلغ من معرفة تقنية رفيعة ، أن يحيط بكل عناصر الصناعة الواحدة ، بل حتى بجزء يسير منها ، مما يغدو معه انجاز الأعمال ، ودراسة المشاريع ، وتطوير الانتاج دون الاستعانة بالحاسبة الألكترونية أمرا عسيرا يتطلب وقتا طويلا وأموالا باهظة وجهدا مضنيا . فجاءت الحاسبة الألكترونية لتسهم في حل مشاكل الانسان ولتحمل عنه عبئا ثقيلا فأعفته من الأعمال « الروتينية » المتشابكة ليتفرغ الى ما هو أنفع للانسانية ، في عصر أخذ فيه التسارع في انجاز الأعمال لتلبية حاجات سكان هذا الكوكب الارضي الذي نعيش عليه يحتل المركز الأول من تفكير الانسان المعاصر .

واذا ما استعرضنا المجالات التي تسهم فيها الآلة الحاسبة الألكترونية ، نجدها كثيرة ، وخاصة في البلدان الصناعية المتقدمة . ففي صناعة الزيت ، على سبيل المثال لا الحصر ، نرى أن الآلة الحاسبة الألكترونية تلعب دورا فعالا تمتد آثاره الى العديد من جوانبها ومرافقها . فهي تستخدم في دراسة أحوال مكامن الزيت في الحقول المنتجة بغية التوصل الى أفضل الطرق وأنجع الأساليب التكنولوجية الحديثة لاستغلالها بأقل التكاليف والجهود الممكنة . وتتم دراسة مكامن الزيت ، التي يبعد بعضها عن سطح الأرض نحو خمسة كيلومترات أو أكثر ، عن طريق « تمثيل أوضاع المكمن — Simulation » بمعادلات رياضية معينة تطبق على الزيت والماء والغاز ، ثم حلها بواسطة الحاسبة الألكترونية ، وذلك لوضع برنامج للانتاج للسنوات المقبلة في ضوء النتائج التي تخرج بها الحاسبة ، مع المحافظة على الضغط من الناحية الانتاجية . هذا « النموذج الرياضي للمكمن « Reservoir Simulator » كان ضربا من المستحيل لعشر سنوات خلت ، بيد أن الحاسبة الألكترونية جعلت من تلك الأعمال الفذة شيئا ممكنا ، بل عمليا ومجديا . ان صنع نماذج المكامن هو أمر في غاية التعقيد التكنولوجي ، بل يعد من قمة التكنولوجيا الحديثة .

تمكن الانسان من صنع نماذج « Models » للسفن والطائرات والصواريخ والمركبات الفضائية وغيرها ساعده على ذلك خيال مجنح كثيرا ما زين له الصعود الى القمر أو الدوران حول الأرض . وقد حقق انسان القرن العشرين من خلال تلك النماذج من المنجزات العلمية ما كان يعتبر في فجر التاريخ أضغاث أحلام . أما عمل نموذج لمكمن زيت طوله عشرون ميلا ، يحتوي على الزيت والغاز والماء ، تتباين في تركيبه الضغوط وتتداخل في عملية الانتاج منه عوامل متعددة في سبيل التكهن على وجه الدقة بما سيطرأ عليه من تغيرات فيما لو ضوعف الانتاج ، فذلك مطلب كان تنفيذه عسيرا لولا الحاسبة الألكترونية. والمادة الأساسية التي يعتمد عليها عمل نموذج يمثل أوضاع المكمن ، هي الحاسبة الألكترونية والمعادلات الرياضية الخاصة بأنواع المكامن ، والمعلومات المفصلة عن المكمن وتاريخه ، بما في ذلك تركيبه الطبقي وسمك تشكيلاته الصخرية ومسامية صخر المكمن « Porosity » وقابلية الانضغاط « Compressibility » والنفاذية « Permeability » ولزوجة الزيت والماء « Viscosity » ونسبة تشبع صخر المكمن بالزيت « Oil Saturation » ، وعمق خط تماس الزيت مع الماء « Oil-Water Contact » وسمك طبقة الزيت وعمق منتصف سمكها من السطح ، والضغط الأصلي للمكمن قبل الانتاج ، ودرجة حرارة صخر المكمن ، وجميع قياسات الضغط وتواريخها منذ البدء في الانتاج . فعلى ضوء تلك المعلومات التفصيلية تتوفر لدى مهندسي المكامن العناصر الأساسية لتمثيل أوضاع المكمن



١ – تعيين الضغوط المختلفة للمكمن يتم عن طريق « راسمة » خاصة .

٢ – جانب من وحدة تجهيز المعلومات بالآلات الحاسبة الالكترونية التابعة لأرامكو ..

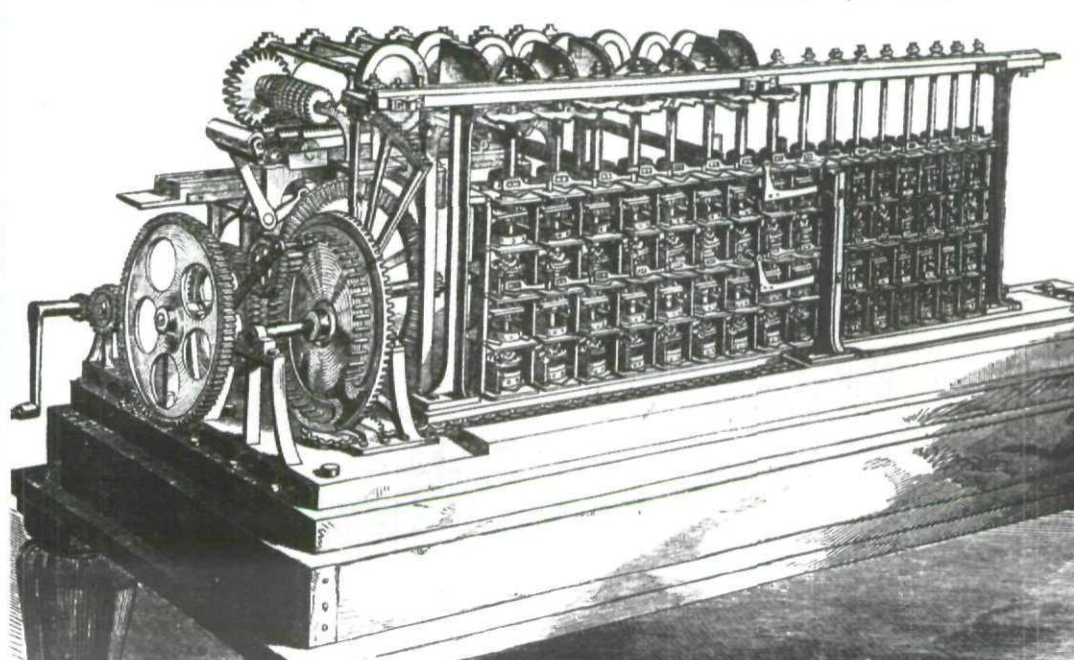
٣ – من الآلات الحاسبة الالكترونية التي تستخدمها أرامكو في انجاز عملياتها ، هذه الحاسبة الألكترونية الخاصة بتخطيط وتنظيم توريد أعمال الزيت .

تمثيلا ناجحا . أما المعادلات الرياضية المستخدمة في عملية تمثيل المكامن فليست حديثة عهد ، وانما هي معروفة منذ الأربعينات من القرن الحالي ، ولكن استخدامها في هذا المجال قد تأخر حتى تم تطوير الحاسبات الألكترونية . وكأي تقدم في مجال المعرفة التقنية فان انجاز تمثيل المكمن يعتمد أساسا على القدرة على حل العمليات الحسابية العديدة المعقدة في آن واحد وبشكل موضوعي دقيق .

وبعد أن ينتهي مهندس المكامن من جمع المعلومات الوافية عن الحقل المراد تمثيل أوضاعه وتنسيقها ، يقوم بوضع خريطة أو رسم توضيحي لطبوغرافية الأرض فوق المكمن يُري خطـوط الارتفاعـات والانخفاضات «Contours» وحدود الحقل ، والآبار الموجودة فيه. ثم يعمد بعدها الى تقسيم الخريطة الى مربعات صغيرة أو خلايا « Cells » ذات أبعاد مختلفة ، يربط بها المعلومات المتوفرة لديه عن الحقل . كما يضع مقابل كل خلية التقديرات التقريبية لما تختزنه الطبقات الحاملة للزيت من كميات متفاوتة مبنية على الدراسات الجيولوجية والهندسية الموسعة . وهي خطوة مهمة تحتاج من مهندسي المكامن عناية فائقة ومعلومات دقيقة حتى تكون تقديراتهم أقرب ما يكون الى الصحيح. وبعد أن يفرغ مهندس المكامن من جمع المعلومات وتجهيزها وتصنيفها تبدأ عملية مرهقة ، هي عملية تلقيم هذه المعلومات للحاسبة الألكترونية ، بالاضافة الى الرسوم البيانية التي توضح ضغوط كل بئر على حدة عبر تاريخها . وسرعان ما يتلقى المختصون تقريرا مطبوعا مفصلا من الحاسبة الألكترونية يبين فيما اذا كانت التقديرات التقريبية لأوضاع المكمن تنسجم مع ما سبق أن سجل من قياسات لكل بئر ، وما عرفوه عن المكمن خلال مراقبتهم له عبر السنوات الماضية . وباعادة النظر فيما يلقمه مهندسو المكامن للحاسبة من معلومات ، توخيا لتصحيح الفروق الظاهرة بين تقديراتهم وبين ما يحصلون عليه من نتائج ، يستطيعون تدريجيا أن يجعلوا من « النموذج » صورة صادقة ومطابقة للمعلومات التي تجمعت لديهم عبر مراقبتهم الدائمة للمكمن ، وهم في هذا العمل يشبهون الفنان الذي لا يني يعالج لوحته بلمساته الفنية الأخيرة حتى تخرج تحفة تسر الناظرين .

عندما يتم انجاز هذه العملية المعقدة يصبح لدى مهندسي المكامن « نموذ ج » يمثل التاريخ المقارن للمكمن بآباره ، وبه يستعان في وضع برنامج للانتاج على المدى القصير والطويل. وهنا تبرز القيمة الحقيقية لاستخدام الحاسبة الألكترونية ، فهي فضلا عن اختصار الجهد والوقت فانها أيضا تختصر التكاليف . فمقدار انتاج الزيت من حقل أو بئر يعتمد على اجراء عمليات حسابية معقدة ، عناصرها الضغط والحرارة وطبيعة المكمن وعمقه وما الى ذلك مما لا يقع تحت حصر . وهذه العمليات لو جرى حلها بالطرق التقليدية المعروفة لأخذت من المعنيين بالانتاج وقتا طويلا يتعذر معه معرفة كل ما يحيط بالمكامن المختلفة من أوضاع لتلبية متطلبات الصناعة الحديثة من طاقة . فبالنموذج الرياضي للمكمن يتسنى لمهندسي الانتاج معرفة ما يطرأ على المكمن فيما لو طلب رفع طاقته الانتاجية ، والى متى يمكن الاستمرار في تلك الزيادة في الانتاج قبل اللجوء الى الوسائل المساعدة في استخلاص الزيت ، كحقن المكمن بالغاز أو الماء أو غير ذلك من وسائل معروفة . وهناك عامل أساسي على جانب كبير من الأهمية يؤخذ بعين الاعتبار أثناء عملية تمثيل أوضاع المكامن ، الا وهو الجدوى الاقتصادية . ففي حقل كبير يقتضي استخلاص الزيت منه انشاء مرافق مساعدة كحقن الغاز أو الماء على سبيل المثال ، فان ذلك يتطلب استثمار أموال باهظة . ولما كانت تكاليف عملية تمثيل المكامن هي في حد ذاتها ليست زهيدة ، لذا كان الاقدام على تنفيذها أمرا يتطلب قدرا كبيرا من الروية والتفكير حتى تنسجم المبالغ المصروفة على هذه العملية مع الأهداف الاقتصادية والانتاجية المتوخاة . وعلى هذا يرى الخبراء أن « عملية تمثيل المكامن » تكون مجدية حقا اذا جرى تطبيقها على حقول الزيت ذات الطاقة الانتاجية العالية .

وقد أقدم كثير من شركات الزيت العالمية ، ومن بينها شركة الزيت العربية الأمريكية « أرامكو » ، على تبني مشروع « تمثيل المكامن» نظرا لجدواه الاقتصادية ، وتوخيا لاتباع أنجع السبل وأفضل الطرق العلمية الحديثة لاستغلال المكامن .



نموذج للآلة الحاسبة التي ابتكرها العالم « شوتز — Scheutz » في عام ١٨٥٥ ، وكان حجمها لا يتعدى حجم « البيانو » . (تصوير : بتمان)



تطورت الآلات الحاسبة الألكترونية حتى غدت ر المركبات الفضائية وتوجيهها في مركز أبحـــاث

وفي مجال التنقيب السسموغرافي عن الزيت، أثبتت الحاسبة الألكترونية فعاليتها وجدواها في دراسة طبيعة التشكيلات الجيولوجية في باطن الأرض ، عن طريق انعكاس الاهتزازات الأرضية التي تلتقطها أجهزة خاصـــة تعرف باسم « Geophones » وتنقلها عبر أسلاك الى آلة الكترونية. وهناك يتم تسجيلها على أشرطة ممغنطة. ثم يجري تحليلها ودراستها بالحاسبة الألكترونية . ومن ثم تتحول تلك المعلومات من أرقام ورموز الى خطوط وتعرجات يستطيع المهندس الجيولوجي بموجبها رسم خرائطه الجيولوجية . وبهذه الطريقة تتوفر للجيولوجيين معلومات وافية عن سمك الطبقات الصخرية وشكل تكوينها الجيولوجي وعمقها ، وانحنائها وبالتالي عن احتمال وجود مصائد للزيت فيها .

هذا ، وتستخدم الحاسبة الألكترونية في عمليات شحن الزيت بغية اتباع الطرق المثلى في الشحن ووضع البرامج البعيدة المدى ، وذلك عن طريق تغذية الحاسبة الألكترونية بمعلومات افتراضية مبنية على مواصفات وشروط التحميل والتشغيل والاحصاءات العديدة التي تعكس التوقيت النسبي عبر فترة محدودة من الزمن . كما تساعد الحاسبة في عملية مزج الزيت من الحقول المختلفة وذلك للتوصل الى كثافة معينة تقتضيها عوامل شحن الزيت ، وهي عملية كانت تأخذ من « مرحلي الزيت — Dispatchers » وقتا طويلا. بينما تستغرق على الحاسبة الألكترونية ثوان معدودة .

وفي مجال الكشف عن أسرار الفضاء الخارجي ، تلعب الحاسبات الألكترونية دورا بارزا . اذ أصبح من الممكن لرحلات الفضاء المأهولة وغير المأهولة أن تحقق أهدافها بواسطة الآلات الحاسبة الألكترونية . وذكرى رحلة أبولو الثالثة عشرة المؤملة لا تزال عالقة بالأذهان، فقد تولى العالم نوع من الفزع عندما كادت المركبة الفضائية أن تصاب بكارثة من جراء خلل في أجزائها، وهي على بعد ٢٠٥ ٠٠٠ ميل عن الأرض . بيد أن العلماء باستخدام الحاسبة الألكترونية تمكنوا من اجراء العمليات الحسابية المعقدة التي استغرقت ٨٤ دقيقة وصححت مسار المركبة ، وبذلك هبطت برواد الفضاء الى الأرض بسلام . وقد صرح خبراء وكالة الفضاء الأمريكية « ناسا » أن انجاز تلك العمليات الحسابية يتطلب من عالم رياضي يشتغل بالقلم والورقة ١ ٠٤٠ ٢٥٦ سنة بالضبط .

وفي حقل التعليم أخذت الحاسبة الألكترونية تعفي المدرس من أعمال روتينية كثيرة كرصد العلامات وكتابة التقارير وتقويم فحوص الطلاب وما الى ذلك ، مما يساعد المدرس على تكريس وقته لانجاز مهام أخرى يعود نفعها وخيرها على الطلاب .

كما أن الحاسبات الألكترونية تسدي خدمات جلى في ميدان الطب . فهـــي تسهم في حفظ السجلات الخاصة بالمرضى ، وصنع عقاقير وأدوية جديدة ، ودراسة أعراض الأمراض المختلفة وتحليل الفحوص الطبية بدقة متناهية مما يساعد الأطباء على التأكد من صحة تشخيص المرض . وبالاضافة الى ذلك تساعد الحاسبات الالكترونية على تطوير الأجهزة والمعدات الطبية .

وفي الميادين الحياتية المتشعبة شقت الحاسبة الألكترونية طريقها اليها بنجاح كبير ، فهي تسهم في المشاريع العمرانية والهندسية الضخمة كانشاء الجسور والسدود والأنفاق والطرق ، وتصميم المباني والمصانع والآلات والأجهزة ، وحل المشاكل العلمية والمعادلات الرياضية المعقدة ، وتقرير الموازنات ، واجراء الاحصاءات ورصد الأجرام السماوية، والتكهن بأحوال الطقس. والكشف عن المراجع العلمية ، وحل مشاكل المرور وتخفيف حدة الازدحام في الميادين المكتظة ، وحجز بطاقات السفر ، وتوزيع البريد ، وجرد المستودعات ، وتنظيم الأعمال المصرفية ، واختزان المعلومات عن محتويات المتاحف والمكتبات.. كل ذلك يتم بسرعة مذهلة ودقة متناهية .

وهكذا نرى أن الحاسبة الألكترونية لم تدع بابا من أبواب الحياة أو العلم الا وولجته بخطى واسعة لتفتح للانسان آفاقا جديدة في تحقيق حياة رغيدة وعيش خفيض ■

سليمان نصر الله
من هيئة التحرير

بحـــاث الفضاء .. والصورة لغرفة مراقبة سير يوستون » الأمريكية . (تصوير : ناسا)



نموذج للآلة الحاسبة الكهربائية التي استخدمت في انجاز عملية احصاء سكان الولايات المتحدة الأمريكية في عام ١٨٩٠ . (تصوير : بتمان)



صورة لخارطة العالم التي وضعها الادر



من القرن الخامس الى القرن الثامن

بقلم الدكتور نقولا زيادة

مر العالم الاسلامي ، من أقصى المشرق الى أقصى المغرب ، فيما بين القرن الخامس (الحادي عشر) والقرن الثامن (الرابع عشر) ، بتجارب سياسية واجتماعية واقتصادية وعسكرية منوعة كان لها في حياة المجتمع العربي الاسلامي آثار بعيدة المدى . ويكفي أن نذكر مثلا أنه في هذه الفترة بلغ التفكك السياسي ذروته ، وهاجم الصليبيون ديار الشام ومصر واحتلوها مدة من الزمن ، وتوغل الاسبان في الأندلس وهاجم المغول بغداد وقضوا على الخلافة العباسية ، ثم قامت في ديار الشام ومصر دولة الأيوبيين ثم دولة المماليك ، كما ظهرت في المغرب دولة المرابطين ثم امبراطورية الموحدين .. يكفي أن نذكر هذه الأمور كي ندرك مدى التمزق والضغط اللذين تعرض لهما هذا العالم الواسع والتنوع الجديد في التكوين العنصري لبعض أجزائه ، والتبدل الاقتصادي الذي اجتازه . ومع ذلك فقد ظل فيه نشاط علمي ، ولكنه كان يختلف عن النشاط الذي عرفته القرون السابقة لذلك .

فمن الناحية الواحدة غلب على الفكر العربي في المشرق انعدام التجديد والابتكار فيه واهتمام المشتغلين بالعلم بوضع معاجم وموسوعات نظمت معارف الأولين في مختلف البحوث والدراسات . وكان الكثير من المؤلفات التي وضعت يقصد من وضعها ناحية عملية على ما يتضح لنا من سياق البحث .

وحري بالذكر ، من الناحية الثانية ، أن المدرسة الرسمية التي بد الوزير السلجوقي « نظام الملك » ، لما أنشأ المدرسة النظامية في بغ (القرن الخامس-الحادي عشر) ، أصبحت هي النموذج لمعاهد التع العالي في أيام الأيوبيين والمماليك في المشرق . وكانت الغاية التي تع المدرسة من أجلها تهيئة موظفين لأعمال الدولة المختلفة في الدواو والقضاء والافتاء والتدريس . وهذه المدارس كانت ، بحـ الغايات التي كان مطلوبا منها أن تحققها ، معاهد تقلي قلما تعنى بالقضايا الجديدة والمشاكل المتنوعة ، لأن المجت بكامله أصبح فيه شيء من الانطواء على النفس ، ان لم يـ انطواء تاما .

ونحن اذا انتقلنا الى المغرب الاسلامي وجدنا شبها بأحوال المشرق فقد كان القرن الخامس على حد تعبير الدكتور « حسين مؤنس » حـ « بالمآسي والقلق والحيرة في الأندلس » . فقد كان أهله ثمرات عـ الخلافة الأموية ، لكنهم لم يلبثوا أن فاجأتهم الفتنة التي أطاحت بالخلافة « فاذا الدنيا تنقلب من حولهم وتصوح آمالهم وتفرض الظروف القا عليهم طريقا غير التي أرادوا ، وتجرفهم الحوادث فتصبح حياتهم متصلة وقلقا دائما » .

وسع ذلك فان الفترة الممتدة من أواسط القرن الخامس (القرن الحادي عشر) الى أواسط القرن السادس (الثاني عشر) وصل فيها التأليف في الأندلس في شتى ضروب العلوم ذروته . وقد أجمل الدكتور حسين مؤنس ما يتميز به الانتاج الفكري بقوله :

« والخصائص المميزة للانتاج الفكري الأندلسي خلال هذا القرن ، هي : التجويد والاحكام في التأليف ، ثم وفرة الانتاج المنسوب الى كل علم من الأعلام ، وتكامل الجهود في شتى ضروب العلم حتى لا يكاد يخلو ضرب منه من مؤلفات مجيدة تعتبر معالم واضحة في تاريخه كله . وخلال هذا القرن أيضا نرى كيف وصلت الرسائل المختصرة التي تكتب في موضوع بعينه الى ذروة لم تعرفها هذه الرسائل قبل ذلك ، ونلاحظ اتجاها واضحا نحو التخصص .

ولقد عرف تاريخ الفكر الاسلامي التخصص من زمن بعيد ولكن في ميادين معينة كالفقه والحديث واللغة وعلوم القرآن ، أما التخصص في غير هذه العلوم كالجغرافية والفلسفة والطب والنبات والعقاقير وما اليها فهو الجديد في الأندلس خلال هذه الفترة . حتى العلوم التي عرف الأندلسيون الانقطاع لها قبل هذه الفترة نجد التخصص فيها يصل بها الى ذروات لم تعرفها قبلها أو بعدها » .

على أننا اذا نحن تجاوزنا القرن السادس (الثاني عشر) الى القرنين اللذين تلواه ، وجدنا أن الذي قلناه من قبل عن المشرق ينطبق على المغرب أيضا .

وفي هذه القرون التي أشرنا اليها ظهر عدد من الجغرافيين اللامعين ، ولكننا سنقتصر في هذا الحديث على نفر قليل منهم ، هم : أبو عبيد الله البكري ، والأدريسي ، وأبو الفداء ، وابن شداد ، والنويري ، والعمري ، والقلقشندي . وقد يبدو غريبا للبعض أن يضم الكتاب الثلاثة الأخيرون الى الجغرافيين . ولذلك فلنسارع الى القول بأن المادة الجغرافية الاقليمية والسياسية والادارية التي نجدها عند أمثال هؤلاء المؤلفين تكاد تكون فريدة بالنسبة الى حاجات المؤرخ المعني بالموضوع .

ونحن نود أن نعالج هؤلاء المؤلفين في ثلاث مجموعات ، الأولى منها تضم البكري وياقوت وأبا الفداء . والثانية نفردها للادريسي والثالثة تشمل ابن شداد والنويري والعمري والقلقشندي .

° ° °

أبو عبيد الله البكري أندلسي المولد والنشأة . ولد في « ولبة » في أوائل القرن الخامس (الحادي عشر) وانتقل مع أبيه الى قرطبة وهو في مطلع شبابه ، ثم انتقل الى « المرية » ثم الى « اشبيلية » حيث قضى نحبه سنة ٤٨٧هـ (١٠٩٤م) . وللبكري مشاركات في اللغة والأدب وما الى ذلك على نحو ما كان عليه أهل العلم في العصور الخوالي ، كما أن له كتابا في النبات . أما البكري الجغرافي فمعروف بكتابين هما : « معجم ما استعجم » ، و « المسالك والممالك » .

و « معجم ما استعجم » هو أول معجم جغرافي في تاريخ التأليف الجغرافي عند العرب . فالدكتور حسين مؤنس ، الذي درس تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، يقول عنه : « فان التأليف في ذلك الفن (الجغرافية) اقتصر حتى الآن على البلدان والمسالك والممالك . أما أن يفكر عالم في وضع معجم أبجدي لأسماء المواضع فهو حدث يعين ميلاد نوع جديد من التأليف الجغرافي عند العرب .. نوع يتطور ويزهو حتى يصل الى ذروته في معجم ياقوت المعروف » .

وقد عرفنا المؤلف بكتابه بقوله : **« هذا كتاب معجم ما استعجم ذكرت فيه — ان شاء الله — جملة ما ورد في الحديث والأخبار والتواريخ والأشعار من المنازل والديار والقرى والأمصار والجبال والآثار ، والمياه والآبار والدارات والحرار ، منسوبة محددة ومبوبة على حروف المعجم مقيدة .. فلما رأيت ذلك قد استعجم على الناس ، أردت أن أفصح عنه ، بأن أذكر كل موضع مبين البناء ، معجم الحروف حتى لا يدرك فيه لبس أو تحريف » .**

و « معجم ما استعجم » يتناول شبه جزيرة العرب ، وقد قدم المؤلف لقاموسه بدراسة شاملة عن شبه الجزيرة من الناحية الجغرافية . والكتاب مقدمة ومتنا ، نتيجة جهد وصبر واطلاع واسع وتنظيم فكري واخلاص للعلم . وهو ، الى ذلك كله ، دقيق الى درجة كبيرة جدا . ومع أن البكري لم يزر ديار العرب ، ذلك بأنه لم يخرج من الأندلس ، فقد تصور البلاد تصورا ممتازا . وقد استعملت هذا المعجم كثيرا ، واستعمله غيري كثيرون ، وفي كل مرة كنا نرى الفائدة الجلى التي تعود علينا من قراءة المادة التي تلزمنا ، وقد رتب البكري معجمه على حروف الهجاء على نحو ما كان الأندلسيون يقبلون بترتيبها (١) ، ولكن مصطفى السقا ، ناشر المعجم في طبعته الثانية التي نشرت في مصر ، أعاد ترتيب أعلامه على ترتيب حروف المعجم المألوف لدينا .

والبكري كتاب آخر في الجغرافية هو « المسالك والممالك » ، وهو لم ينشر كاملا بعد ، بل لم تجمع كل مادته في مكان واحد ، ولذلك فالحديث عنه يظل ناقصا . وقد أفرط المؤلف في المقدمات التي لا علاقة لها بالجغرافية ، ثم انتقل الى مقدمة عامة لخص فيها المعرفة الجغرافية الى عصره . وبسبب دقته وصفاء أسلوبه ومقدرته على التنظيم فانه وضع بين أيدي قرائه صورة واضحة للمعرفة الجغرافية الى أيامه . وفصله عن الأنهار قيم . فلما انتهى من المقدمات أخذ الممالك بالترتيب بادئا من الهند . فهو يصف المملكة ، أي القطر ، عامة ثم ينتقل الى مسالكها . وحديثه عن هذه الأقطار مفصل اذ يورد بعض التاريخ وخصائص أهلها وعاداتهم . ولا يقتصر البكري على ديار الاسلام ، شأن جغرافيي القرن السابع (العاشر) ، بل يتناول أقطارا أوروبية بالوصف الدقيق . ويجب أن نذكر أن البكري ، مثل عدد من مؤلفي كتب الممالك والمسالك ، تختلف معالجته للاقطار بنسبة ما يحصل عليه من معلومات ومصادر . فيطيل حيث يقع على التفاصيل ويختصر في غير ذلك . ولكنه دقيق في تخيره المعلومات وتنظيمها في كل حال .

وقد نشر الدكتور عبدالرحمن الحجي مؤخرا القسم الخاص بالأندلس وأوروبة من كتاب البكري هذا ، ونرى من المناسب أن ننقل هنا فقرة مما جاء فيه لنظهر أسلوب البكري وطريقته في معالجة موضوعاته الجغرافية :

« بلاد افرنجة : في وسط الاقليم الخامس ، وهواؤها غليظ لشدة بردها ، ومصيفها معتدل . وهو بلد كثير الفاكهة غزير الأنهار ، منبعثة من ذوب الثلج . ومدائنه متقنة الأسوار محكمة البناء ، وآخر حدودها بحر الشام ، وحده آخر البحر المحيط ، البحر الشامي بقبليها والبحر المحيط بجوفيها . ويتصل ببلاد رومة أيضا من ناحية الجوف بلاد الصقالبة

---

(١) كان الأندلسيون يرتبون حروف الهجاء على النحو التالي : أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش هـ و ي

بينهما شعراء ملتفة ، مسيرة الأيام الكثيرة ، ويتصل بالشرق أيضا بالصقالبة ويتصل بالغرب بالبشكنس ، ويتصل أيضا ببلاد بيوره وهم الذين يعرفون بالأمانيس ، ولهم كلام غير كلام الافرنج .

وتتمادى افرنجة في الطول والعرض مسيرة شهرين مع غيرها من القبائل . ويحجز بين بلاد افرنجة وبلد الصقالبة في الجوف والشرق الجبل المعترض بين البحرين ، فيتمادى بلد الافرنج مع ساحل البحر القبلي الشامي حتى يلتصق بجزيرة رومة وبلد لنقبرذية ، ويتمادى مع الجبل المعترض في الجوف الى البحر المحيط . ويتصل بالصقالبة بلاد المجوس المعروفين بالأنقلش . وسيوف افرنجة تفوق سيوف الهند » .

* * *

واذا نحن انتقلنا من البكري الأندلسي باحثين عن معجمي آخر حري بالتحدث عنه ، انتهى بنا المطاف الى ياقوت الحموي ، صاحب « معجم البلدان » .

ياقوت رومي المولد ، وقد حمل الى سوق الرقيق ببغداد حيث اشتراه تاجر اسمه « عسكر بن ابراهيم » وأصله من حماة ، ومن هنا نسبته الحموي . وقد وضعه سيده في مدرسة حيث تعلم الكتابة ، بحيث أفاد منه في ضبط حساباته وتجاراته . لكن ياقوت أفاد من المدرسة أدبا ولغة . وأرسله عسكر في تجارات له بعيدة حملته الى عمان وجزيرة كيش وغيرهما من أقطار الخليج العربي وديار الشام . وهذا هو السبب الذي من أجله أغرم ياقوت بالرحلة . وقد اعتقه عسكر ، ويبدو أنه حدثت بينه وبين سيده جفوة لم يطل أمدها . ومؤرخو ياقوت يظنون أن سيده أوصى له ببعض ثروته ، فتمكن بذلك من تعاطي التجارة لحسابه الخاص .

وقد تنقل ياقوت كثيرا ، رحالة وتاجرا وطالب علم . فهو يوم في تبريز ، ويوم في مصر ، ويوم في مرو . وقد أغرته خزائن الكتب في هذه المدينة فقضى فيها سنتين يلتهم ما فيها من معرفة ، وفيها بدأ بوضع معجمه . وانتقل الى خوارزم (خيوه) ، لكن لما بلغه تحرك جنكيزخان نحو الغرب هرب الى الموصل تاركا كل ثروته في خوارزم ، فوصل الموصل معدما . ولكن الوزير ابن القفطي استضافه في حلب الا أنه عاد بعد سنتين الى الموصل فأتم معجمه ثم زار مصر وعاد الى حلب فعمل على تنقيح مؤلفه وتوفي في تلك المدينة سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٩م) .

وبعد ، فما هو معجم البلدان؟ ينقسم الكتاب الى ثلاثة أقسام غير متساوية : أولها مقدمة ، وثانيها خمسة أبواب هي بمثابة مدخل الى المعجم ، وثالثها المعجم نفسه ، وهو ، بطبيعة الحال ، القسم الأكبر من الكتاب . والمقدمة تكاد تكون تبريرا واعتذارا عن طرق مثل هذا الموضوع فيقول بأن قراءة الرحلات والتعرف الى أحوال الناس وما أصاب البلدان فيها جميعها موعظة . ويذكر قراءه بأن معرفة التفاصيل الجغرافية والتاريخية عن أقطار المعمورة لازمة للعلمـــاء والمجتهدين والقضاة والحكام . ويتحدث في المقدمة عن مصادره المكتوبة ، والرجال الذين نقل عنهم ، يقول :

« واستقصيت لك الفوائد جلها أو كلها ، ولكنك عفوا صفوا عقدها وحلها ، حتى لقد ذكرت أشياء كثيرة تأباها العقول ، وتنفر عنها طباع من له محصول ، لبعدها عن العادات المألوفة ، وتنافرها عن المشاهدات المعروفة ، وان كان لا يستعظم شيء مع قدرة الخالق وحيل المخلوق ، وأنا مرتاب بها نافر عنها متبرئ الى قارئها من صحتها ، لأنني كتبتها حرصا على احراز الفوائد ، وطلبا لتحصيل القلائد منها والفرائد ، فان كانت حقا فقد أخذنا منها نصيب المصيب ، وان كانت باطلا فلها في الحق شرك ونصيب ، لأنني نقلتها كما وجدتها ، فأنا صادق في ايرادها كما أوردتها ، لتعرف ما قيل في ذلك ، حقا كان أو باطلا ، فان قائلا لو قال : سمعت زيدا يكذب ، لاحببت أن تعرف كيفية كذبه » .

والأبواب الخمسة التي تلي المقدمة يتناول فيها ياقوت صورة الأرض من حيث معطياتها الفلكية والرياضية ، ومعنى الأقاليم ، ويحدد مصطلحات جغرافية معرفتها لازمة ، مثل البريد والفرسخ ، ويبين حكم الأرضين من حيث الفتح وحكم الشرع ، ويقدم نبذا من أخبار البلدان .

فاذا انتهى من ذلك كله أخذ نفسه بعرض الأماكن — جبالا وأنهارا ومدنا ومواقع — على الترتيب الألفبائي ، محددا طريقة لفظ الموضع بالضبط (كتابة) وقد يفسر الكلمة اشتقاقا ، ويستشهد بالشعر أو النثر موضحا شارحا . وبعدها يأخذ نفسه بالناحية الجغرافية والتاريخية .

ومعجم البلدان يتمتع بميزات خاصة يمكن اجمالها فيما يلي :

- انه جماع للجغرافية في صورها الفلكية والوصفية واللغوية والرحلات ، كما تنعكس فيه الجغرافية التاريخية الى جانب الدين والحضارة والأنثولوجية والأدب الشعبي والأدب الفني .
- وزع ياقوت اهتمامه على العالم الاسلامي والشرق الأقصى . فمن هذه الناحية أدرك الرجل ، ولعلّ ذلك بسبب تحرك المغول المعاصر له ، ان تلك المناطق النائية ازدادت العلاقة الوثيقة بينها وبين العالم الاسلامي بسبب تطورها التاريخي القريب .
- يعطي ياقوت وصفا دقيقا للأمكنة التي زارها ويورد التفاصيل الدقيقة عن الأبنية والقلاع والمرافئ ، ويهمه وصف العادات والأخلاق .
- كان ياقوت يعرف الجهد الذي بذله ، ولذلك فقد وصف معجمه بقوله : « **وعلى ذلك فانني أقول ولا أحتشم ، وأدعو الى النزال كل علم في العلم ولا أنهزم ، ان كتابي هذا أوحد في بابه ، مؤمر على اضرابه ، لا يقوم بابراز مثله الا من أيد بالتوفيق ، وركب في طلب فوائده كل طريق ، فغار تارة وأنجد ، وطوح لأجله بنفسه فأبعد ، وتفرغ له في عصر الشبيبة وحرارته ، وساعده العمر بامتداده وكفايته وظهرت منه امارات الحرص وحركته .** »

وهكذا نرى أن معجم البلدان منجم للمعرفة الجغرافية ، وهو الى ذلك يعطينا صورة للعالم الاسلامي قبل أن يحطم التتار (المغول) أجزاءه .

وكان ياقوت لا يحب أن يتعرض معجمه للاختصار قط . ورأيه في ذلك ووصيته توضحان ناحية من نواحي شخصيته . قال :

« **ولقد التمس مني الطلاب اختصار هذا الكتاب مرارا ، فأبيت ولم أجد لي على قصر هممهم أولياء ولا أنصارا ، فما أنقدت لهم ولا أرعويت ، ولي على ناقل هذا الكتاب والمستفيد منه أن لا يضيع نصبي ، ونصف نفسي له وتعبي ، بتبديد ما جمعت ، وتشتيت ما لفقت ، وتفريق ملتئم محاسنه ، ونفي كل علق نفيس عن معادنه ومكامنه ، باقتضابه واختصاره ، وتعطيل جيده من حليه وأنواره ، وغصبه اعلان فضله وأسراره ، فرب راغب عن كلمة غيره متهالك عليها ، وزاهد عن نكتة غيره مشغوف بها ، ينضي الركاب اليها . فان أجبتني فقد بررتني ، جعلك الله من الأبرار ، وان خالفتني فقد عققتني والله حسيبك في عقبى الدار .**

ثم اعلم أن المختصر لكتاب كمن أقدم على خلق سوي ، فقطع أطرافه فتركه أشل اليدين ، أبتر الرجلين ، أعمى العينين ، أصلم الأذنين ،

أو كمن سلب امرأة حليها فتركها عاطلا ، أو كالذي سلب الكمي سلاحه فتركه أعزل راجلا » .

ومع ذلك فلم ترع وصية ياقوت ورغبته . ذلك بأن ابن عبد الحق انتزع من معجم البلدان مادته الجغرافية ووضعها في كتاب سماه « مراصد الاطلاع في أسماء الأمكنة والبقاع » ، كما أن السيوطي لخص معجم البلدان في كتاب اسمه « مختصر معجم البلدان » .

* * *

كتاب « تقويم البلدان » الذي وضعه الملك المؤيد أبو الفداء ، يمثل ما وصل اليه تنظيم المعرفة الجغرافية الى أواسط القرن الثامن (الرابع عشر) . والمؤلف من الدوحة الأيوبية ، ولد في دمشق سنة ٦٧٢هـ (١٢٧٣م) وتوفي في حماة سنة ٧٤٢هـ (١٣٤١م) ، وقد كان أميرها أكثر من مرة . وكانت حماة في أيامه موئلا لأهل العلم والأدب والشعر . وقد تعرف أبو الفداء الى ديار الشام ومصر وبلاد العرب وشرق آسية الصغرى والجزيرة ، ولم يزر سواها . لكن المؤلف يختلف عن غيره ممن تحدثنا عنه في أنه كان مؤرخا كبيرا ، وكتابه « المختصر في أخبار البشر » مصدر رئيسي لاحداث الفترة الأولى من العصر المملوكي .

وكتابه « تقويم البلدان » فيه قسم صغير يضم المعلومات المعهودة عن تقسيم الأرض وخط الاستواء والأقاليم السبعة والمعمور من الأرض والمصطلحات المستعملة في الجغرافية بشكل يذكرنا بالمؤلفين الذين سبقوه الى الكتابة في هذه المواضيع . أما القسم الكبير الرئيسي فهو في ٢٨ جزءا أو جدولا ، انصرف فيه الى التحدث عن الأقاليم أو الأقطار التالية ، وهي : بلاد العرب ومصر والمغرب والسودان والأندلس وجزر البحر المتوسط والمحيط الأطلسي وبلاد الفرنجة والترك (ويسميها بلاد الشمال) والشام والجزيرة والعراق وخوزستان وفارس وكرمان وسجستان والسند والهند والصين وجزر البحر الشرقي والروم وأرمينية والعراق العجمي والديلم وطبرستان وخراسان والغور وطخارستان وخوارزم وما وراء النهر . ويبدو من هذا التقسيم أمران : أولهما تأثر المؤلف بالبلخي ومدرسته ، وثانيهما عودته الى تقسيم جغرافيي القرن الرابع (العاشر) ، أي أنه أطرح جانبا تقسيم الأرض الى أقاليم فلكية . ولم يأت أبو الفداء بجديد في معلوماته ، الا فيما ندر ، لكنه جمع هذه المعرفة وبوبها ونظمها . وفي كل اقليم جغرافي يبدأ بعرض عام للمنطقة وآثارها وعادات سكانها ، ثم يتلو ذلك جدول يبين فيه الأماكن المأهولة ووصفا عاما للمدن وتعيين مواقعها الفلكية من حيث الأطوال والعروض . ومادته عن ديار الشام والأقطار المجاورة لها هي ذات الأهمية الكبرى عنده لوفرة المادة التي حصل عليها .

وها نحن أولاء ننقل نموذجا من تقويم البلدان هو وصف المؤلف لمدينة القيروان :

« ومدينة القيروان محدثة بنيت في صدر الاسلام ، وهي في جنوبي الجبل والجبل من شماليها وهي في صحراء تصلح لجمال العرب ، وكانت قاعدة أفريقية في صدر الاسلام وهي اليوم تابعة لتونس . وشرب أهلها من الآبار وليس لها ماء جار وهي في الوطأة . قال في العزيزي : ومدينة القيروان أجل مدن المغرب وكان عليها سور عظيم فهدمه زيادة الله بن الأغلب لما ثار على عمار بن مجالد . وشرب أهلها من ماء المطر يجتمع لها من الشتاء في برك عظام تسمى (المواجل) ولها واد في قبلة المدينة تأتي فيه ماء ملح يستعمله الناس فيما يحتاجونه » .

الجنوب

الاول الهند
حدّه مما يلي المشرق السند والبحر الى الديبل من ارض السند والجزائر المنسوبة اليه من الديبجات والزنج واخر حدوده مكران الى حدود البصرة فيما بين الهند واليمن وطالعه الجدى وصاحب الساعة زحل والقمر في الدلو

الثاني الحجاز
حدّه مما يلي مصر وعدن ابين واليمن وبادية العرب وبلاد الجزيرة بين نهري الفرات ودجلة الى ارض الثعلبية مما يلي العراق طالعه العقرب وساعته الزهرة والقمر في الجدى

الثالث مصر
حدّه ارض الحبشة مما يلي ارض الحجاز الى البحر الاخضر مما يلي الروم الى نصيبين مما يلي العراق يدخل فيه مصر والاسكندرية الى اقصى المغرب والسودان الذين في البراري والبحر طالعه الميزان وقيل العقرب صاحب ساعته القمر بالسنبلة

الرابع بابل
حدّه مما يلي الهند الديبل ومما يلي الحجاز الثعلبية ومما يلي مصر الشام ومما يلي الروم نصيبين ومما يلي خراسان نهر بلخ ففيه العراق والجبل وخراسان وسجستان وزابلستان طالعه الحمل وساعته المشترى والقمر في بيته

الخامس الروم
حدّه مما يلي مصر الخليج ومما يلي المغرب البحر الاخضر ومما يلي الترك ياجوج ومما يلي العراق نصيبين ففيه الروم والجلالقة والاندلس وجرجان واذربيجان الى باب الابواب طالعه الميزان صاحب الساعة زحل والقمر بالاسد

السادس ياجوج
حدّه مما يلي المغرب الترك ومما يلي الخزر البحر ومما يلي المشرق الصين ومما يلي العراق نهر بلخ ففيه الخزر والترك والغز وخزخيز وكيماك واصنافهم والروس والصقالبة طالعه الاسد ساعته المريخ والقمر بالقوس

السابع الصين
حدّه مما يلي المغرب ياجوج وماجوج ومما يلي المشرق البحر المحيط ومما يلي الهند قشمير ومما يلي خراسان نهر بلخ ففيه الصين والتبت والختن وبلاد ما وراء النهر والاتراك الخارجة لها طالعه الحوت ساعته القمر بالسنبلة

المشرق

الشمال

صورة توضيحية عن كيفية توزيع أقطار العالم على الأقاليم السبعة لياقوت الحموي.

٣٠٥٤

ضبط الاسماء	ثامن الاقاليم العرفية وهو العراق							اسماء المنقول عنهم	الاسماء	سطر العدد
	الاقليم العرفي	الاقليم الحقيقي	العرض دقائق	العرض درج	الطول دقائق	الطول درج				
من المشترك بضم النون وسكون العين المهملة وميم والف ونون وياء مثناة تحتية وفي آخرها هاء	من العراق	من الثالث	ح	لا	ك	ع		اطوال	النعمانية	١٥
من اللباب بفتح النون وسكون الهاء وضم الراء المهملة وفتح الواو وبعد الالف نون	من العراق على جانبي نهر	من آخر الثالث	مه / كه	لا / لا	ك / ك	ع / ع		اطوال / قانون	النهروان	١٦
من اللباب بفتح القاف وسكون الصاد المهملة وفي الآخر راء مهملة	من العراق	من الثالث	مه / م	لب / لا	ل / م	ع / سط		اطوال / قانون	قصر ابن هبيرة	١٧
من اللباب براء مهملة ساكنة بين جيمين مفتوحتين ثم راء مهملة والف وياء مثناة من تحت وفي آخرها الف	على غربي دجلة من العراق	من الثالث	م	لا	ل	ع		اطوال وقانون	جرجرايا	١٨
من اللباب بكسر الصاد المهملة وسكون اللام وفي آخرها حاء مهملة	على غربي دجلة من العراق	من الثالث	م / ن	لب / لب	مه / م	ع / عب		اطوال / قانون	فم الصلح	١٩
معروف	من العراق	من آخر الثالث	كه / به	لا / لا	ن / ن	ع / سط		اطوال / قانون	نهر الملك	٢٠

صفحة من كتاب « تقويم البلدان » لأبي الفداء .

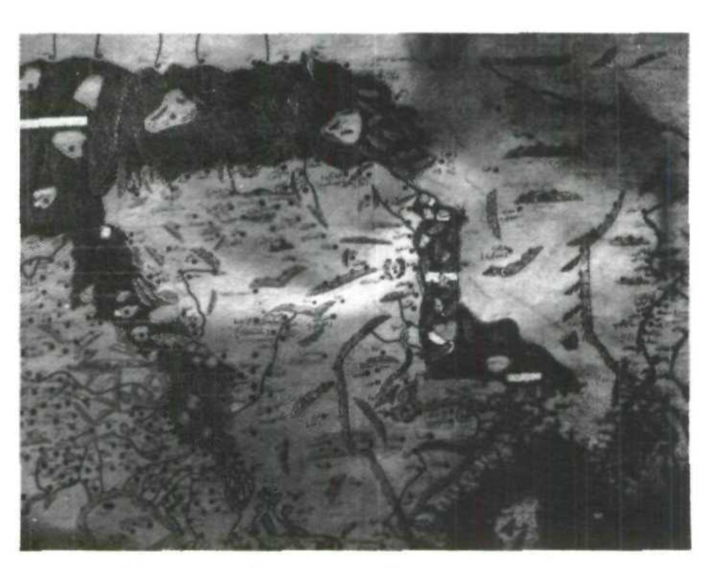
حري بنا وقد تحدثنا عن البكري وياقوت وأبي الفداء ، أن نذكر أنفسنا بأن هؤلاء المؤلفين الثلاثة تخطوا الحدود التي رسمها جغرافيو القرن الرابع (العاشر) لأنفسهم ، اذ اقتصر هؤلاء على وصف ديار الاسلام . فالبكري تعرض لمناطق أوروبية في « المسالك والممالك » ، وياقوت عني بالشرق الأقصى في معجمه ، وأبو الفداء تناول بلاد الروم وبلاد الترك والفرنجة في تقويمه . وقد كان كل هذا طبيعيا ، فالفترة التي عاش فيها هؤلاء هي فترة العناية بالعالم الخارج عن ديار الاسلام ، بالاضافة الى هذه الأقطار الاسلامية . فالتجارب العسكرية والسياسية والتطورات التي خبرها العالم الاسلامي واجتازها كانت تحتم على كتابه والمؤلفين فيه أن ينظروا الى خارج ديارهم وأن تكون نظرتهم يقصد منها التعرف الى البلاد التي خرج منها خصومهم ومحاربوهم أو الجماعات التي أثرت فيهم أو أثروا فيها .

• • •

ضمنا معجم ما استعجم ، ومعجم البلدان ، وتقويم البلدان ، في مجموعة واحدة ، لأنها كلها من نوع المعاجم الجغرافية ، ولو أن الأخير منها هو في أصله جداول لا معجم . لكن يبدو أن فكرة ترتيب الكتاب على أساس حروف الهجاء قد خطر على الأقل لكاتب واحد هو « سباهي زاده » التركي المتوفى سنة ٩٩٧هـ (١٥٨٨م) ، ولكن هذا الكتاب لم ينشر بعد .

ولننتقل الآن الى المؤلف الذي يعتبر الكثيرون عمله ذروة التأليف الجغرافي عند العرب ، وهو الشريف الأدريسي المتوفى سنة ٥٦٠هـ (١١٦٥م) ، أو قبل ذلك بقليل . ومع أن الأدريسي شغل الباحثين طويلا ، ولا يزال يشغلهم ، فان معرفتنا به لا تزال محدودة . ونحن نحيل القارئ الذي يريد أن يتعرف الى القضايا المختلفة المتعلقة بحياته وكتابه الى الفصل الطويل الممتع الذي كتبه الدكتور حسين مؤنس في كتابه « تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس » المنشور في مدريد سنة ١٣٨٦هـ (١٩٦٧م) ص ١٦٥ — ٢٨٠ ، فهو أحدث ما كتب في الموضوع ، ومن أفضل ما وضع فيه .

وتعود الصعوبات المتعلقة بالرجل وعمله الكبير الى أمور يمكن اجمالها فيما يلي :



صورة لجزء من خارطة العالم التي وضعها الجغرافي العربي « الأدريسي » منقولة عن الخارطة الملونة التي أعدها المجمع العلمي في بغــداد .

• ان الذي نعرفه عن حياة الادريسي قليل جدا ، ذلك بأن أصحاب التراجم لم يعنوا به الا فيما ندر .

• ان كتاب الادريسي « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » لم ينشر بعد تاما في مجلد واحد ، ذلك بأن الاهتمام أنصب على أجزاء منه ، فنشر الباحثون الفصول التي تهمهم بشكل خاص .

• ثمة اختلاف كبير بين النسخ التي هي بأيدي الدارسين لآثار الأدريسي الجغرافية ، ولكن معهد الدراسات الشرقية في ايطالية أخذ على عاتقه قبل سنوات تهيئة طبعة علمية لكتاب الأدريسي ، وعهد الى عدد من المهتمين بالموضوع القيام بذلك . ولا شك أن هذا الأمر يستغرق بعض الوقت قبل أن يوضع المؤلف كاملا بين أيدينا ، الا أن الدكتور احسان عباس يعد الآن نصا كاملا لنزهة المشتاق ، وسينشر قريبا .

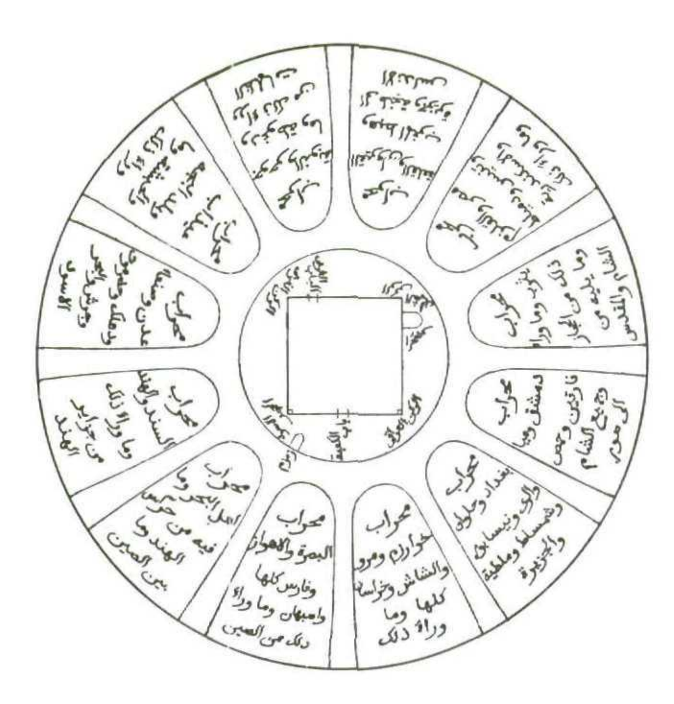
بعد ايراد هذه التحفظات نضع بين أيدي القراء خلاصة ما وصل اليه الباحثون حول المؤلف وكتابه « نزهة المشتاق » .

ولد الشريف الأدريسي في « سبتة » بالمغرب سنة ٤٩٣هـ (١١٠٠م) . وفي شبابه خرج من تلك البلاد سائحا متجولا في الشرق ، وقد زار مصر وآسية الصغرى ، وليس ما يدل على أنه زار ديار الشام مثلا . ومن الواضح أن الادريسي أقام وقتا طويلا بقرطبة ، وتلقى العلم بها ، ومن الواضح أن هذا جاء بعد رحلته الى المشرق . ويرى البعض أنه زار لشبونة وسواحل فرنسة ، بل لعله وصل انكلترا . والمهم أن الشريف الأدريسي وفد على صقلية سنة ٥٣٣هـ (١١٣٩م) ، ونزل في ضيافة ملكها « روجار » الثاني في « بلرمو » ، وهناك وضع كتابه « نزهة المشتاق » .

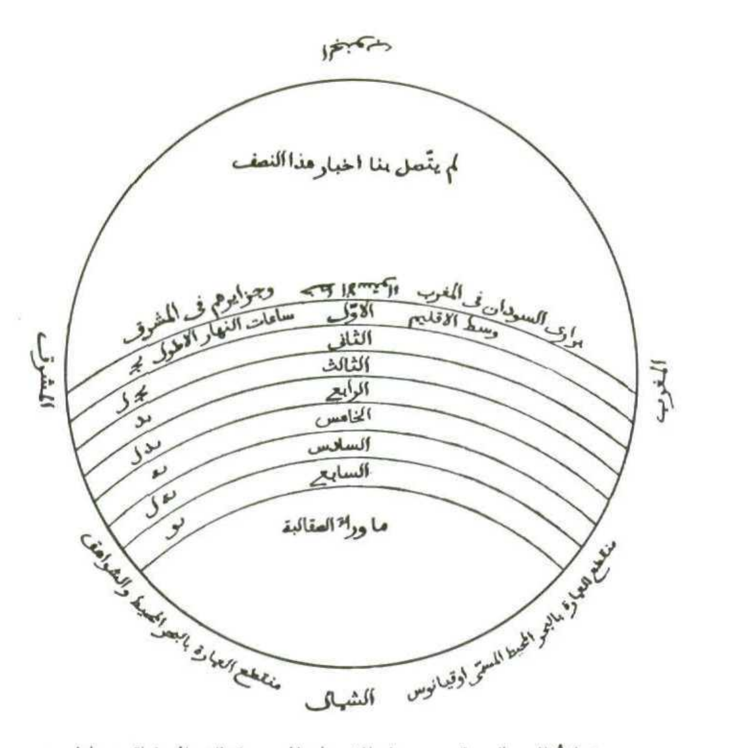
ويجدر بنا أن نتذكر أن صقلية كانت في أيدي العرب مدة طويلة قبل أن احتلها النورمان في القرن الرابع (العاشر) . ولكن ملوك النورمان حافظوا على ما كان في الجزيرة من حضارة بيزنطية عربية ، لأنهم أدركوا الفائدة التي تعود عليهم من ذلك . وكان البلاط النورماني يجد فيه أهل العلم والمعرفة ترحابا كبيرا بقطع النظر عن مذاهبهم . وكان روجار الثاني معنيا بالجغرافيا وتسقط أخبار الأقطار ، لذلك لقي الأدريسي في البلاط التكرمة اللائقة به . وهناك طلب منه روجار أن يضع له كتابا لجغرافية العالم ، فقام الرجل بذلك ، ولكنه صنع مع ذلك شيئين آخرين : أولهما أنه رسم خارطة مستديرة للعالم على كرة أو قرص من الفضة ، وثانيهما أنه رسم سبعين خارطة للأجزاء التي قسم العالم اليها . ولسنا نعرف في أي منها بدأ الادريسي عمله ، ولكن من المرجح أن العمل تم في هذه الأشياء الثلاثة معا . ولنذكر بادئ ذي بدء ، أن الأدريسي كان على علم واسع بالجغرافية والفلك والحساب والتاريخ ، وكذا الأدوية والأعشاب .

والباحثون يذهبون الى أن الأدريسي اطلع على ما كتبه الجغرافيون العرب من قبل ، سواء في ذلك ما نقلوه عن بطليموس أو ما وضعوه مستقلين منفردين . وقد درس الدكتور حسين مؤنس مصادر الأدريسي ومنهجه في العمل فخلص من ذلك الى أن الرجل :

« بعد أن قرأ ما قرأ من كتب الجغرافية والفلك ، وبعد أن ساح في البلاد على قدر ما استطاع ، بدأ يرتسم في ذهنه تصور جديد لجغرافية الأرض ومنهج جديد لكتابتها يختلف تمام الاختلاف عما سبقه الى ذلك الحين : تصور عام يشمل الأرض كلها على أنها كلٌّ واحد كل ما فيه جدير بالوصف والتحقيق ، فلا يقتصر التحقيق على حوض البحر الأبيض كما عند بطليموس ، أو على عالم الاسلام ، كما عند معظم جغرافيي العرب الى ذلك الحين ، تصور جغرافي خالص لا يختلط بالتاريخ هذا



صورة تبين موضع القبلة بالنسبة الى الأقطار المختلفة لياقوت الحموي .



صورة للأقاليم السبعة من خط الاستواء الى جهة الشمال لياقوت الحموي .

الاختلاط الذي جعل الكثير من كتب الجغرافية كتب تاريخ أيضا ، كما نجد عند أبي عبيد البكري ، ولا يخلط بين الحقيقة والأسطورة ، كما نجد عند الهمداني ، تصور جغرافي علمي خالص . وبناء على هذا التصور رسم منهجه : منهج مشاهدة وقياس ومقارنة وربط بين الأجزاء بعضها ببعض ومراعاة النسب بينها ، وعمل صورة كاملة للأرض ثم كتابة وصف كامل لهذه الصورة يشمل وصف هيئتها العامة وتقسيمها بعد ذلك الى مناطق يستقصي الكلام عنها في تفصيل ، ويجمع عنها كل ما تيسر له من المعلومات ، فما شهده بنفسه أثبته كما رآه ، وما لم يشهده سأل عنه أهله ومن رحلوا اليه وساروا في طرقه أو أبحروا في أمواهه أو اشتغلوا بالتجارة فيه . ويستكمل ذلك بما عسى أن يجده في كتب الجغرافية التي تتيسر له .

وليس معنى هذا أن الأدريسي فكر في هذه العناصر كلها وهو يرسم منهجه الجغرافي ، فان تصور الجغرافية على هذا النحو لم يولد الا بعد عصره بقرون ، ولكنه على أي حال فكر في منهج جديد أو بتعبير أدق : سار في طريق جديد ، هو الطريق الذي وصل بالجغرافية الى ما هي عليه اليوم ، وتطلب منه السير في ذلك الطريق عناصر لم يجدها فيما بين يديه من الكتب ، لا مصورات عامة أو جزئية دقيقة ولا قياسات يمكن التعويل عليها ، ولا أوصاف للنواحي يمكن الاعتماد عليها ، ولا تفاصيل موثوق فيها كل الثقة عن أجناس البشر ومصادر ثروتهم وميادين نشاطهم وانتاجهم . وكان عليه أن يبدأ هو بذلك ، فقرر أولا أن يرسم صورة شاملة للأرض حتى يسير على خطة واضحة في عمله ، ثم قسم هذه الخريطة الى أقسام صغيرة ، ومضى يبحث المعلومات الموجودة عن كل قسم ويحققها بسؤال من يعرفونها ومقارنة أقوال بعضهم ببعض واستخراج شيء يمكنه الاطمئنان اليه من ذلك كله » .

والاسس التي بنى عليها الأدريسي جغرافيته هي : كروية الأرض ووجود الأقاليم السبعة بدءا من خط الاستواء والابتداء بالأطوال من جزر « الخالدات » (جزائر كناري) . واتخذ خريطة بطليموس أساسا لخريطته ، لكنه أصلح ما فيها من أخطاء .

وبدل أن يكتفي بقسمة الأرض الى أحزمة عرضية موازية لخط الاستواء ، فقد قسم كل اقليم الى عشرة أجزاء طولية ، وبذلك تحتم عليه أن يصف سبعين جزءا بدل أن يصف سبعة أقاليم ، على طريقة بطليموس ، أو المناطق الجغرافية على طريقة أهل القرن الرابع (العاشر) . ولعل الرجل رسم خارطة العالم المستديرة أولا ، ثم نزع الأقسام السبعين وبسطها بحيث حولها الى خريطة مسطحة . وهو عمل شبيه بالذي قام به « مركاتور الفلمنكي » في القرن السادس عشر من رسم الأطوال والعروض على زوايا قائمة . ولعله أثناء ذلك قام بعمل كرة أرضية من الفضة وجعل الرسامين والنقاشين ينقلون على مستطيلاتها محتويات كل مستطيل من الخريطة المسطحة .

وكان أن وضع كتابا مطولا يشرح فيه هذه الخريطة وأجزاءها ، فجاء كتابه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » ، حاويا وصف البلاد والبقاع والبحار والجبال والأنهار والمزروعات والغلال وأجناس النبات والصناعات والتجارات والسكان وعاداتهم وملابسهم ولغاتهم .

وجاء اتمام العمل في رسم الخرط الصغيرة التي بلغ عددها سبعين خارطة أو صورة .

° ° °

أمامنا الآن أربعة من الذين عالجوا الجغرافية لا على أنها علم مستقل، ولكنهم تعرضوا للجغرافية الاقليمية والادارية والسياسية لمناطق مختلفة ، مع الاهتمام بديار الاسلام أو جزء منها ، ضمن اطار من التأليف خاص . وهؤلاء هم : ابن شداد ، والنويري ، والعمري ، والقلقشندي .

عاش هؤلاء في القرنين السابع والثامن (الثالث عشر والرابع عشر) . فابن شداد عرف عصر الأيوبيين ، لكنه عاش خمسا وثلاثين سنة تحت حكم المماليك . أما الثلاثة الباقون فقد ولدوا وعاشوا وتوفوا ودولة المماليك قائمة . وجميعهم شغلوا مناصب في الدولة . فابن شداد، الحلبي الأصل، كان من موظفي الدولة الأيوبية ، وكان خبيرا في الشؤون المالية ، وقضى بعض الوقت في دمشق ، لكنه انتقل الى القاهرة بعد الغزو المغولي ، وتمتع برعاية بيبرس وقلاوون ومات فيها . والنويري المصري ولي كتابة الانشاء ،

وكان في وقت من حياته ناظرا للجيش في طرابلس (لبنان) . وابن فضل الله العمري ، دمشقي المولد مصري التعليم كانت له مشاركة كبيرة في شؤون الدولة والادارة أيام المماليك ، وخاصة في شؤون البريد وكتابة السر . والقلقشندي المصري أيضا التحق بديوان الانشاء بالقاهرة .

ويمكن أن يفرد كتاب ابن شداد المسمى « الاعلاق الخطيرة في أمراء الشام والجزيرة » عن مؤلفات الثلاثة الآخرين . فهو في واقع الأمر دراسة تاريخية جغرافية اقتصادية ادارية (ومالية في بعض الحالات) لمناطق ثلاث هي : شمال الشام ، وجنوب الشام ، والجزيرة الفراتية . وهو يتناول المدن المختلفة معددا أبوابها وقلاعها ومساجدها الجامعة والمساجد الأخرى والمزارات والخوانق والربط والمدارس القائمة فيها .

لكنّ الكتاب الثلاثة الآخرين وضعوا كتبهم لتزويد كتاب الدواوين بحاجاتهم التفصيلية في ميادين الأدب والتاريخ والشرع والسياسة والتقسيم الاداري والنظم والرسوم والاوامر السلطانية وأساليب الكتابة الرسمية والخاصة . ويكاد الجميع يتفقون في تبويب كتبهم الا أن الاختلاف يقع في التفاصيل .

يتعرض كل من هؤلاء الى الجغرافية على اساس أن معرفة الأقاليم والممالك لازمة للعاملين في الدواوين . فالنويري في كتابه « نهاية الأرب في فنون الأدب » يفرد القسم الأول من كتابه للسماء والآثار العلوية والأرض والمعالم السفلية . واذا نحن أخذنا هذا القسم وجدناه يعرض فيه للاقاليم السبعة فيذكر حدود كل منها وما يدخل فيه من البلاد على نحو التقسيم البطليموسي ويذكر في نهاية كل فقرة عدد المدن في الاقليم على ما ورد عند بطليموس . فاذا أخذ نفسه بوصف البلاد لجأ الى مؤلفي كتب المسالك ينقل عنهم . ثم يخص المدن بالوصف الذي يختلف اجمالا وتفصيلا بقدر ما تصل اليه يده من المصادر . ويورد المباني المشهورة في كل بلد كما يتحدث عن المتنزهات المشهورة . وفي كثير من الأحيان يستعرض ماضي المدن وما طرأ عليها من التبدل والتغير ، وبذلك يقدم لنا مصدرا من الدرجة الأولى بالنسبة للجغرافية والجغرافية التاريخية المعاصرة . ولعلّ وصف النويري لمتنزهات الدنيا، ودنياه في الدرجة الأولى ديار الاسلام، يعطينا صورة حية لأسلوبه في معالجة موضوعه . يقول النويري :

« اتفق جوابو الأقطار أن مستنزهات الدنيا أربعة مواضع ، وهي : صغد سمرقند ، وشعب بوان ، ونهر الأبلة ، وغوطة دمشق . وقد رأيت أن أصف هذه المستنزهات بصفاتها التي شاهدتها ونقلت الي ، وأخبارها التي عاينتها وقصت أنباؤها علي ، فقلت في ذلك : ألذ ما تمتعت بحسنه النواظر ، وأبهى ما ارتاحت النفوس الى أزهاره النواضر ، وصف رياض تاهت الأرض على السماء بأزهارها ، وباهت أنوار الكواكب بنورها ونوارها .

فمنها صغد سمرقند ، الذي تحف به بساتين كست زهرتها من الأرض عاريها ، وأصبح للسماء بكاء في جوانبها وللروض ابتسام في نواحيها تتخللها قصور يتضاءل سنا النجم في آفاقها ، وتحتجب الغزالة عند طلوعها حياء من بهجتها واشراقها .

ومنها شعب بوان ، الذي غدت مغانيه مغاني للزمان ، وقصرت الألسن عن وصف محاسنه وطالت الى اقتطاف ثمره البنان ، تكاد شمسه تغرب عند الاشراق ، ولا تتخلل أشجاره الا والحياء يعيدها في قبضة الاطراق ، يستغني بغدرانه عن صوب الصيب .

ومنها نهر الأبلة ، الذي طوله أربع فراسخ ، ورؤوس نخله على وجه الأرض شوارف وأصولها في الثرى رواسخ ، بجانبيه بساتين ، ان هب النسيم بأغصانها تعانقت وتمايلت ، وان لعب بأفنانها تناظرت وتماثلت ، كأنما غرست في يوم واحد شجراته ، وقامت على خط الاستواء نخلاته ، وفيه يقول التنوخي شاعر اليتيمة :

واذا نظرت الى الأبلة خلتها	**من جنة الفردوس حين تخيل**
كم منزل في نهرها آلى السرو	**ر بأنه في غيره لا ينزل**
فكأنما تلك القصور عرائس	**والزهر وشي فهي فيه ترفل**
غنت قيان الطير في أرجائه	**هزجا يقل له الثقيل الأول**
وتعانقت تلك الغصون فأذكرت	**يوم الوداع وغيرهم تترحل**
ربع الربيع بها فحاكت كفه	**حللا بها عقد الهموم تحلل**
فمدبّج وموشّح ومدنّر	**ومعمّد ومحبّر ومهلّل**
فتخال ذا عينا وذا ثغرا وذا	**خدا يعضض تارة ويقبل**

ومنها غوطة دمشق ، التي هي شرك العقول وقيد الخواطر ، وعقال النفوس ونزهة النواظر ، خلخلت الأنهار أسوق أشجارها ، وجاست المياه خلال ديارها وصافحت أيدي النسيم أكف غدرانها ، ومثلت في باطنها موائس أغصانها ، يخال سالكها أن الشمس قد نثرت على أثوابه دنانير لا يستطيع أن يقبضها ببنان، ويتوهم المتأمل لثمراتها أنها أشربة قد وقفت بغير أوان في كل أوان ، فيا لها من رياض من لم يطف بزهرها من قبل أن يحلق فقد قصر ، ومن غياض من لم يشاهدها في ابانها فقد فاته من عمره الأكثر » .

وكان العمري، في كتابه «مسالك الأبصار في ممالك الامصار»، أدق الثلاثة من الناحية الجغرافية وأوسعهم اطلاعا. وقد اقتصر على ذكر ممالك الاسلام ، فاذا ذكر الممالك الأخرى جاء ذلك عرضا . وقد قال عن نفسه أنه نقل بعض الكتب المصنفة في الموضوعات الجغرافية كتقسيم الأقاليم وأقوال القدماء فيها وأخبار الملل والدول ، وعني بها جملة لا تفصيلا . وقصد من المعمورة الممالك العظيمة . وقد فحص عن العجائب ونقل أخبار الغرائب . بدأ بالمشرق وانتهى بالمغرب والبحر المحيط الا ما كان لا بد فيه من الابتداء بالمغرب كتخريج الأقاليم لابتداء الأطوال من الجزائر الخالدات .

والعمري يعنى بأحوال المدن وأخبارها عناية خاصة . وهو من حيث المعلومات الجغرافية التي نحصل عليها أفيد المؤلفين لنا وأنفعهم . فقد فصل في الجغرافية والتاريخ واختصر كثيرا في غيرهما بحيث يمكن القول بأن كتابه اقتصر على هذين الموضوعين .

وينقسم المصنف الى قسمين أحدهما مكرس للأرض ، والآخر لسكانها من مختلف الشعوب . وينقسم القسم الأول بدوره الى قسمين يطلق العمري عليهما مصطلحا لا يجري عادة في الاستعمال وهو « النوع » ويحمل « النوع الأول » عنوانا موجزا هو « في ذكر المسالك » ، ويجب أن يؤخذ هذا العنوان بمفهومه العريض ليشمل في الواقع الجغرافيا العامة ، أما الباب الأول منه فيبحث في أبعاد الأرض وحالها ، والثاني في الأقاليم السبعة . أما الباب الثالث ففي البحار وكل ما يتعلق بها وهنا يرد ذكر « القنباص » (معرب كومباس Compass وهو البوصلة) . ويبحث الباب الرابع في القبلة والأدلة عليها ، أما الخامس ففي الطرق . هذا فيما يتعلق بالنوع الأول ، فاذا ما انتقلنا الى النوع الثاني فهو يحمل أيضا اسما مقتضبا هو « في ذكر الممالك » ، وينقسم الى خمسة عشر بابا تصف على التوالي الدول والبلاد الآتي ذكرها ، ابتداء من الشرق في اتجاه الغرب : الهند والسند ، ممالك بيت جنكيز خان ، الجيل (كيلان) ،

صفحتان مصورتان عن مخطوطة ابن فضل الله العمري « مالك الأبصار » ، وهما من الجزء الرابع من المخطوطة الموجودة في مكتبة أحمد الثالث في استانبول بتركيا .

الجبال ، الأتراك بالروم (آسيا الصغرى) ، مصر ومعها الشام والحجاز ، اليمن ، المسلمون بالحبشة ، السودان ، مملكة ملى ، جبال البربر ، أفريقيا مملكة بر العدوة (مراكش) ، الأندلس ، العرب، البدو المعاصرون وأماكن سكناهم . والقسم الثاني من الكتاب الذي يبحث في سكان الأرض من طوائف الأمم ينقسم الى خمسة أنواع . أما النوع الأول فانه يحوي مفاخرة بين المشرق والمغرب تمس الطبيعة والحيوان ، بل وطوائف العلماء في صورة مختصرة وفي قالب أدبي . ويبحث النوع الثاني في الديانات المختلفة. بينما يبحث الثالث في طوائف المتدينين ، أما الرابع فمكرس للتاريخ ويتضمن بابين أحدهما في ذكر الدول التي وجدت قبل الاسلام ، والثاني في ذكر الدول الكائنة في الاسلام .

والعمري ، مثل زميليه ، يكتب سجعا ، ولكنه ينظم ، في بعض الأحيان شعرا يدون فيه انطباعاته . وها نحن أولاء ننقل وصف العمري لمدينة طرابلس بلبنان :

« طرابلس — قال ابن فضل الله : ولها نهر يحكم على دورها وطبقاتها بحيث يجري الماء في الأماكن العالية من الدور التي يرقى اليها بالدرج . وحولها جبال شاهقة صحيحة الهواء خفيفة الماء ذات أشجار وكروم ومروج وأغنام وبقر . ويجتمع فيها الجوز واللوز وقصب السكر والثلج . ويعمل بها السكر . وتأتيها وفود البحر وترسي بها مراكبهم ، وهي موضع زرع وضرع . وهي الآن مدينة كثيرة الرخام ، بها مارستانان ، ومساجد ومدارس وزوايا وحمامات حسان مرصوفة وأسواق جليلة ، وجميع بنيانها بالحجر والكلس مبيضة ظاهرا وباطنا . وبها غوطة ويحوط بغوطتها مواضع من مزدرعاتها » .

وفي « كتاب صبح الأعشى في صناعة الانشا » للقلقشندي نجد أنه يورد في المقالة الأولى الأزمنة والأوقات والشهور والفصول من الناحيتين الشرعية والفلكية ويقارن بين أنواع الشهور والسنين ، ويخص المقالة الثانية بالمسالك والممالك . فيذكر الأرض على وجه الاجمال من حيث شكلها واحاطة البحر بها وأقاليمها الطبيعية وأنواع البحار وكيفية استخراج جهات البلدان والأبعاد الواقعة بينها . ويتناول الأرض دولة دولة ، بادئا بمصر ، فيتحدث عن وضعها ومحاسنها وخواصها وعجائبها وزرعها ورياحينها ومطعومها وحيوانها وطيورها وقواعدها. ثم يفصل كورها ومدنها وأخبارها وترتيب أحوالها في معاملاتها ونقودها وأنواع أراضيها ودواوينها وجيوشها ومواكب أمرائها وملوكها . ويتناول العالم الاسلامي أصلا ، ثم ينتقل الى ما خرج عنه ، ولا بد من القول بأن القلقشندي ، الذي كان يعتمد على السابقين من المؤلفين ، لم تتساو لديه المعلومات التي وصل اليها دقة وتفصيلا ، لذلك فهو يقع في أخطاء متعددة عندما يكتب عن الشرق الأقصى أو بعض الأقطار الأوروبية .

ولعل القراء يستطيعون تبين أسلوب القلقشندي ، ولو بعض الشيء ، من القطعة التالية في وصفه لمدينة مراكش . يقول :

« مدينة مراكش — بفتح الميم وتشديد الراء المهملة وفتحها والف ساكنة ثم كاف ثم شين معجمة—مدينة واقعة في أول الأقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال ابن سعيد : حيث الطول احدى عشرة درجة ، والعرض تسع وعشرون درجة . بناها أمير المسلمين « يوسف بن تاشفين » ملك المرابطين في أرض صحراوية ، وجلب اليها المياه . قال ابن سعيد : وأول ما بني بها القصر المعروف (بقصر الحجر) ثم بنى الناس حوله ، ثم زادها يعقوب بن عبد المؤمن ، وكبرها ومصرها ، وفخمها وضخمها ، وجلب اليها المياه والغراس . قال في « تقويم البلدان » : ودورها سبعة أميال ، ولها سبعة عشر بابا . قال في « الروض المعطار » : وبنى سورها علي بن يوسف بن تاشفين في سنة ست وعشرين وخمسمائة ، وقيل سنة أربع عشرة وخمسمائة . وقال : وطولها مائة وعشرون ميلا ، وعرضها قريب من ذلك ، وهي في وطأة من الأرض ليس حولها جبال الا جبل صغير منه قطع الحجر الذي بنى منه علي بن يوسف بن تاشفين قصره ، وعامة بنائها بالطين والطوب .

قال ابن سعيد : وهي مما سكنت بها وعرفتها ظاهرا وباطنا ، ولا أرى عبارة تفي بما تحتوي عليه ، ويكفي أن كل قصر من قصورها مستقل بالديار والبساتين والحمام والاصطبلات والمياه ، وغير ذلك حتى أن الرئيس منهم يغلق بابه على جميع خوله وأقاربه وما يحتاج اليه ، ولا يخرج من بابه الى خارج داره لحاجة يحتاجها ، ولا يشتري شيئا من السوق لمأكل ، ولا يقرئ أولاده في مكتب ، ويخرج من بابه راكبا فلا تقع عليه العين راجلا . قال : ولا أدري كيف أصل الى غاية من الوصف أصف بها ترتيب هذه المدينة المحدثة ، فانها من عجائب همات السلاطين ، ذات أسوار ضخمة وأبواب عالية » .

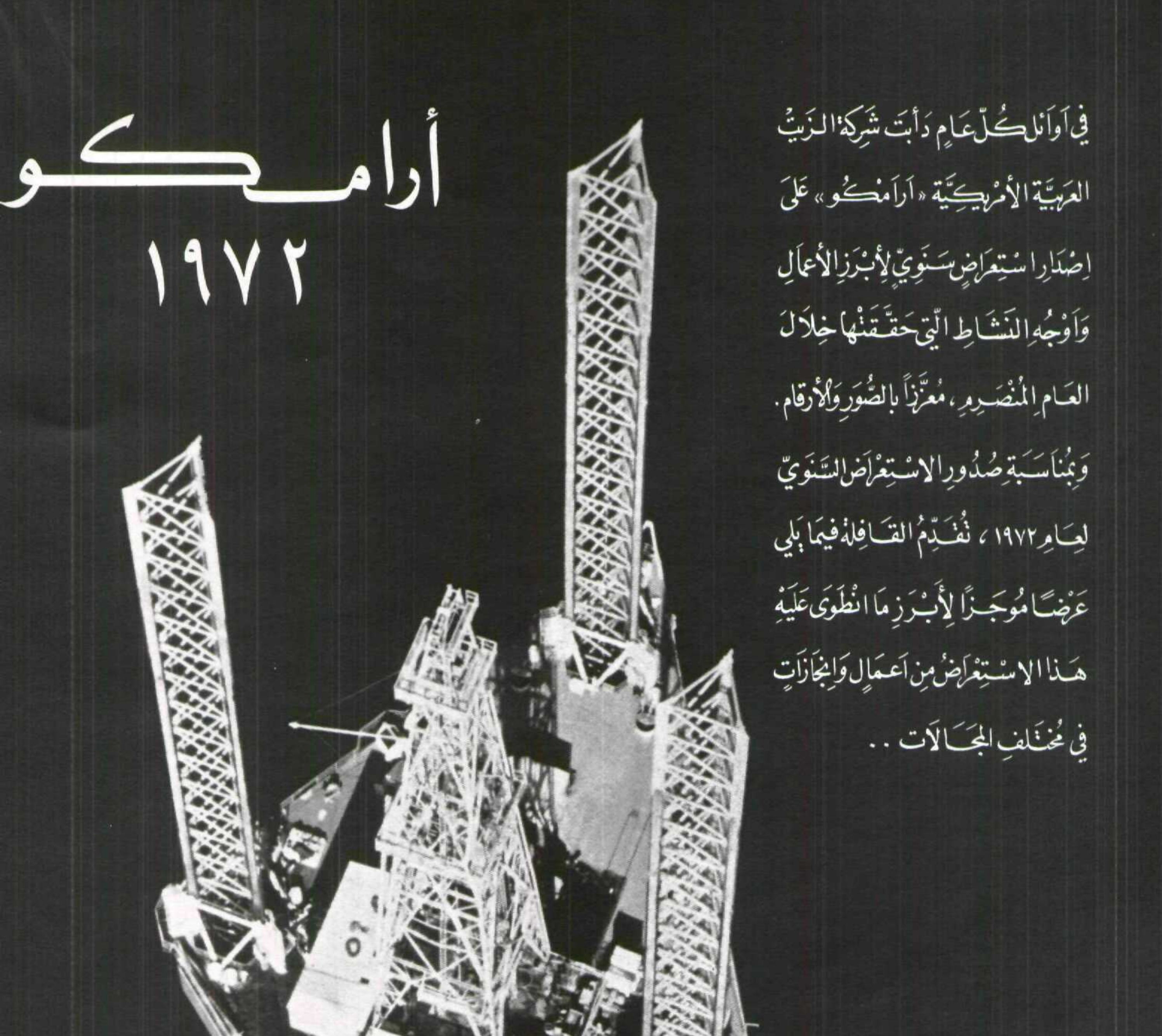
وثمة أمران يجب أن يذكرا لهؤلاء المؤلفين : وهما أنهم كانوا، الا فيما ندر ، امينين في نقلهم وذكر مصادرهم، وانهم حاولوا تحري الحقائق جهدهم . ولكن اذا تذكرنا أن كلا من هذه الكتب يتراوح بين ١٤ و ٣٠ مجلدا ، أدركنا صعوبة التأكيد من كل ما رووه ، أو عجزهم عن الاحاطة التامة بأجواء المعرفة التي تصدوا لجمعها . ولكنهم ، على كل حال ، وضعوا بين أيدينا مادة جغرافية اقتصادية اجتماعية سياسية ادارية ذات قيمة كبيرة ، لأنها تساعدنا في فهم العصر الذي عاشوه ■

د . نقولا زيادة — بيروت

أرامكو ١٩٧٢

في أوائل كلّ عام دأبت شركة الزيت العربيّة الأمريكيّة «ارامكو» على إصدار استعراض سنويّ لأبرز الأعمال وأوجه النشاط التي حقّقتها خلال العام المنصرم، معزّزاً بالصور والأرقام.

وبمناسبة صدور الاستعراض السنويّ لعام ١٩٧٢، تقدّم القافلة فيما يلي عرضاً موجزاً لأبرز ما انطوى عليه هذا الاستعراض من اعمال وانجازات في مختلف المجالات..



أحد أجهزة الحفر الأربعة التي استخدمتها أرامكو في منطقة امتيازها في المنطقة المغمورة خلال عام ١٩٧٢.

أعمال الزيت

حققت الشركة زيادة ملحوظة في الانتاج خلال العام بلغت نسبتها ٢٧,٥ في المائة على متوسط ما أنتجته في عام ١٩٧١ .. اذ بلغ متوسط ما أنتجته خلال العام ٥ ٧٣٣ ٣٩٥ برميلا في اليوم . وبذلك بلغ مجموع انتاج الشركة منذ عام ١٩٣٨ حتى نهاية العام ستة عشر بليون برميل ، منها أكثر من بليوني برميل انتجا في عام ١٩٧٢ ، وهذه هي أول مرة يصل فيها انتاج الشركة الى بليوني برميل في عام واحد .. والجدير بالذكر أن المملكة فاقت جميع بلدان العالم في حجم صادراتها من الزيت .. وقد بلغت حصة أرامكو من مجموع انتاج المملكة من الزيت الخام ٩٥,٣ في المائة .

وتمشيا مع هذا التزايد المستمر في الانتاج ، أقيمت معامل جديدة لفرز الغاز من الزيت ، وتركيز الزيت، ووسعت أخرى . كما زيدت الطاقة على تخزين الزيت الخام وعلى توليد القوة الكهربائية .

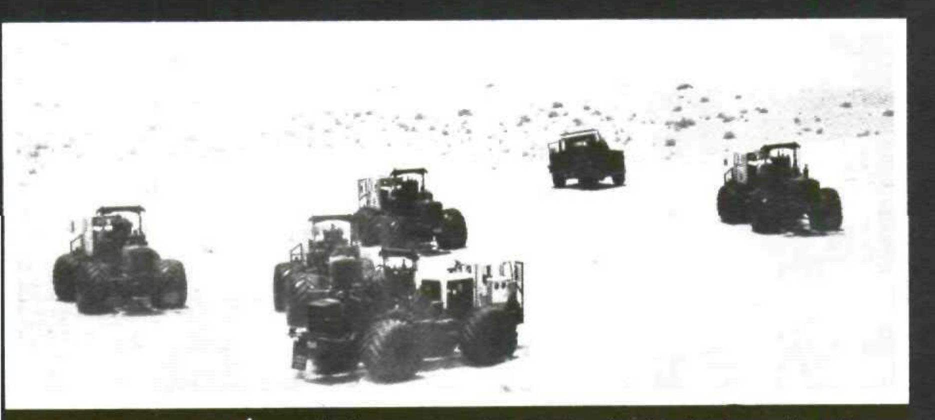
ومن ناحية أخرى اقتضى برنامج التوسعة الضخمة ، انجاز عدد من الآبار بمعدل بئر كل ٢,١ يوم ، ومد حوالي ٣٤ كيلو مترا من خطوط الأنابيب كل شهر لتجميع الزيت الخام ونقله من الآبار الى مراكز المعالجة والشحن، ولنقل الماء المالح من الطبقات الحاملة للماء وحقنه في مكامن الزيت بغية المحافظة على الضغط ..

وقد شملت التوسعات التي اضطلعت بها الشركة خلال العام ، زيادة الطاقة على صنع غاز البترول السائل من ٥١ ٠٠٠ الى ٨٩ ٠٠٠ برميل يوميا ، وانشاء معمل للتجزئة وآخر لتبريد غاز البوتان في رأس تنورة ، وتركيب عمود لازالة الايثان في بقيق . وانشاء جزيرة اصطناعية رابعة لاستقبال الناقلات العملاقة ، مما زاد عدد مراسي الجزر الاصطناعية من ستة الى ثمانية . بالاضافة الى استقدام مركب قطر جديد تبلغ قوته ٤٠٠٠ حصان ليساعد على ارساء الناقلات الضخمة التي تؤم رأس تنورة بصورة منتظمة لتحميل الزيت الخام ، وكذلك استخدام ساحة جديدة للخزانات بين معمل التكرير والفرضة أنشئ فيها خزانان للزيت الخام سعة كل منهما مليون برميل ..

وفي حقل الظلوف المغمور ، كان العمل قد أوشك على الانتهاء في بناء فرضة في المياه العميقة على مسافة ٦٤ كيلومترا من شاطئ



مقاول سعودي يتفقد مع أحد موظفي أرامكو مراحل العمل في مشروع انشائي في منطقة شدقم .



منصات هزازة تحملها السيارات استعملتها فرق المسح السسموغرافي لأول مرة أثناء التنقيب عن الزيت ..



أول معمل متكامل لفرز الغاز من الزيت يقام في حقل الظلوف الذي يقع على بعد ٦٤ كيلومترا عن الساحل .

المملكة وسيتدفق الزيت الخام من آبار الظلوف الى معمل جديد لفرز الغاز من الزيت تم انشاوه في المنطقة المغمورة لمعالجة ٤٨٠٠٠٠ برميل يوميا .. وسينقل الزيت بعدئذ في خطوط للأنابيب تقع تحت الماء الى السفينة « ف. أ. ديفز » وهي خزان عائم سعته ١٨٠٠٠٠٠ برميل ، مربوط الى عوامة ارساء منفردة ، ومنه تنقل خطوط الأنابيب الممتدة تحت الماء الزيت الخام مسافة ١,٦ كيلومتر الى عوامة ارساء أخرى منفردة تستقبل ناقلة واحدة في وقت واحد .

وفي بقيق ، زيدت الطاقة على تركيز الزيت بعد اكمال عمود التركيز رقم — ١١ ، وما زال العمل جاريا في انشاء أربعة أعمدة أخرى للتركيز .

وفي المنطقة الجنوبية ، زادت الطاقة على الانتاج بمقدار ٥٥٠٠٠٠ برميل يوميا ، بعد أن تم انشاء معملين لفرز الغاز من الزيت في شدقم وعين دار ، ووسع معمل آخر في عين دار .. كما كان العمل جاريا في انشاء مرافق رئيسية لحقن الماء في منطقة شدقم ، بالاضافة الى مد حوالي ٢٢٤ كيلومترا من خطوط الأنابيب و ١٤٥ كيلومترا من خطوط القوة الكهربائية ..

ومن المشاريع الكبيرة التي اضطلعت بها الشركة خلال العام ، اقامة مرافق جديدة الى حقل البري المغمور مما أدى الى رفع طاقة انتاجه الى ٦٠٠٠٠٠ برميل يوميا .. والانتهاء من أعمال التصميم الهندسي لانشاء فرضة جديدة لتحميل الناقلات في الجعيمة الواقعة على مسافة ٢٤ كيلومترا تقريبا الى الشمال الغربي من فرضة رأس تنورة . وستشمل هذه الفرضة الجديدة الواقعة في المياه العميقة عوامات ارســاء منفردة ومنصة لمراقبة التحميل في المنطقة المغمورة تتصل بخزانات الزيت الخام على اليابسة عن طريق خطوط للأنابيب ممتدة تحت الماء ..

وفي مجال التنقيب ، أضيفت ثلاث فرق سسموغرافية الى الفرقتين اللتين كانتا تعملان خلال عام ١٩٧١ . وقد قامت هذه الفرق بأعمال المسح في الربع الخالي وبعض المناطق الواقعة بالقرب من حقول الزيت الساحلية ، وفي الجزء الغربي من منطقة الامتياز .. وقد استعملت أداة سسموغرافية جديدة لأول مرة تتكون من منصات هزازة كبيرة مركبة على سيارة نقل وتعمل بضغط السائل .. وقد أجرت هذه الفرق أعمال مسح سسموغرافي تحت الماء في مناطق أبو سعفة والبري ومنيفة والسفانية ..

حفر مائة وست وسبعين بئراً

بلغ عدد أجهزة الحفر المستخدمة في حفر آبار جديدة حتى نهاية العام تسعة عشر جهازا استخدمت في حفر مائة وست وسبعين بئراً لاستخراج الزيت ، وللمحافظة على الضغط بحقن الماء وللمراقبة .

احتياطي البترول الثابت وجوده

قدر احتياطي البترول الثابت وجوده حتى نهاية العام بنحو ٩٢٩٩٢ مليون برميل ، أي بزيادة اجمالية مقدارها ٤٩٣٤ مليون برميل على تقدير عام ١٩٧١ .

عمليات التكرير

بلغت كميات الزيت الخام والبنزين الطبيعي وغاز البترول السائل الخام المعالجة في معمل التكريــر برأس تنـورة حتى نهـايـة العام ٢٠٥٢٩٧٩٣٥ برميلا ، أي ما متوسطه ٥٦٠٩٢٣ برميلا في اليوم .

٣٧٣٤ ناقلة تؤم فرضة رأس تنورة

شهدت الفرضة البحرية برأس تنورة خلال العام حركة نشطة في عمليات الشحن ، فقد بلغ عدد الناقلات التي امتها حتى نهاية العام ٣٧٣٤ ناقلة حملت ما مجموعه ١٨٧٧١١٨٧٠١ برميل من الزيت الخام ومنتجات البترول أي بزيادة مقدارها ٣١ في المائة على ما حمل في عام ١٩٧١ .

ارامكو وموظفوها

الموظفون السعوديون يشكلون ٨٢٪ من الأيدي العاملة

بلغ مجموع عدد موظفي أرامكو العاملين في المملكة العربية السعودية حتى نهاية العام ١١٢٨٢ ، منهم ٩٢١١ موظفا ومتدرجا سعوديا ، أي ٨٢ في المائة من مجموع الأيدي العاملة في الشركة .. ويشغل الموظفون السعوديون ٤١ في المائة من المناصب الرئاسية في الشركة وعددها ٦١٧ منصبا .

ارتفاع متوسط الدخل السنوي للموظف السعودي بنسبة ٨,٤ في المائة

ارتفع متوسط الدخل السنوي للموظف السعودي هذا العام بنسبة ٨,٤ في المائة على ما كان عليه في العام الماضي ، فبلغ ١٩٢٩٧ ريالا .. كما أدخلت تحسينات على برنامج المكافأة السنوية عن الخدمة المستمرة أدت الى زيادة المبالغ المدفوعة الى الموظفين بمقدار ١٦٩٧٩٠٠ ريال على ما كانت عليه في عام ١٩٧١ . وبذلك ارتفع مجموع مكافآت الخدمة التي دفعتها الشركة الى الموظفين لهذا العام الى ٥٩٥٠٨٠٠ ريال ..

كذلك زادت أموال نظام الادخار ، بما فيها مكاسب الاستثمار ، خلال العام حتى بلغت ٧٤٠٢١٠٠٠ ريال ، أي بمعدل ٩١٥٥ ريالا لكل مشترك ..



المنطقة الصناعية في بقيق تشهد توسعة في مساحتها بحيث

٢٤٠٠ موظف ومتدرج يشتركون في برامج للتدريب

بلغ عدد الموظفين والمتدرجين السعوديين الذين اشتركوا في برامج تدريبية تحت اشراف ادارة التدريب خلال العام حوالي ٢٤٠٠ موظف ومتدرج . كما تلقى أكثر من ٢٢٠٠ من هؤلاء تدريبا يتصل بطبيعة عملهم داخل صفوف الشركة وورشها .. بالاضافة الى ١٧٤ آخرين منهم أكملوا دورة أو أكثر من الدورات الست عشرة التي تقدمها الشركة في نطاق التدريب على الادارة .

ومن ناحية أخرى ، كان في نهاية العام مائة موظف سعودي يتلقون الدراسة في كليات وجامعات ومعاهد فنية ومدارس أخرى ، منهم ٩٠ في الولايات المتحدة الأمريكية ، وتسعة في المملكة العربية السعودية ، وقد حاز ١٦ موظفا سعوديا على شهادة البكالوريوس ، وسبعة آخرون على شهادات في مواضيع معينة .

وجدير بالذكر أن برنامج التدرج قد وسع بحيث أصبح يضم ٩٢٠ متدربا في نهاية عام ١٩٧٢ .. ويتلقى المتدرجون تدريبات مدرسية وعملية في صفوف الشركة وفي أماكن العمل المختلفة ، كما يتلقون اعانات شهرية . والغرض من هذا البرنامج هو اعداد المواطنين السعوديين لشغل الوظائف الحرفية والفنية والعمل في المصانع والمكاتب .

أما في مجال الخدمات الطبية التي تقدمها الشركة للموظفين وعائلاتهم ، فقد بلغ مجموع الزيارات التي قاموا بها للعيادات الطبية خلال العام حوالي ٤٠٢٠٠٠ زيارة . ومن بين الخدمات الطبية التي توفرها الشركة ضمن برنامج صحي شامل ، العناية بصحة الأمهات والأطفال والتحصين واختبارات المحافظة على السمع والتثقيف الصحي ..

الشركة تنفق ٧٦٦٨١٠٠٠ ريال على برامج العوائد للموظفين السعوديين

بلغ مجموع ما أنفقته الشركة على برامج العوائــد للموظفــين السعوديين خــلال العام ٧٦٦٨١٠٠٠ ريال ، ويشمل هذا المبلغ ما دفعته الشركة في حالات التقاعد والاقعاد الدائم أو الوفاة والمكافأة على المدخرات والخدمة المستمرة ، وما أنفقته ضمن برنامج العناية الطبية والوقاية الصحية ..

٧٣ في المائة من موظفي الشركة السعوديين يشتركون في برنامج تملك البيوت

بلغ مجموع الموظفين السعوديين الذين تملكوا بيوتا بقروض من الشركة بموجب برنامج تملك البيوت منذ بدء تنفيذه حتى نهاية العام



م ١٩٧٤ ضعف ما كانت عليه تقريبا في مطلع عام ١٩٧٢ .



أكبر عمود للتركيز في بقيق ، اذ يبلغ ارتفاعه ٣٠ مترا ووزنه ٢٦٥ طنا .

٧٩٨٠ موظفا ، وبلغ مجموع القروض الممنوحة بموجب هذا البرنامج ٢٦٣٣٠٠٠٠٠ ريال هذا بالاضافة الى حوالي ٢٠٧٠٠٠٠ ريال أنفقتها الشركة خلال العام على مشاريع عمرانية في المناطق التي تشمل بيوت الموظفين .

أما في مجال السلامة ، فقد واصلت الشركة تقديم برنامج لتدريب الرؤساء على كشف أساليب وعادات العمل غير المأمونة التي يمارسها الموظفون ومنعهم من اتباعها ، كما بذلت مزيدا من العناية في تصميم المعامل بقصد الاقلال من امكان وقوع الخسائر والاصابات . كذلك واصلت تقديم دورات في السياقة الوقائية لموظفيها وحثهم على المضي في استعمال أحزمة المقاعد أثناء السياقة.

ارامكو والبلد الذي تعمل فيه

أنفقت الشركة وموظفوها الأجانب في المملكة العربية السعودية خلال العام ما مجموعه ١٤٩٩٢٧٢٠٠٠ ريال ، أي بزيادة قدرها ١٠٧ في المائة على ما أنفق في العام المنصرم، وذلك اضافة الى ما دفعته الشركة من ريوع وضرائب . ويشمل هذا المبلغ أيضا ما دفعه الموظفون الاجانب من ضرائب على دخلهم الشخصي وما تبرعت به الشركة لأغراض تعليمية وخيرية وانسانية .. وقد جاءت هذه الزيادة في الأموال التي أنفقتها الشركة وموظفوها في المملكة نتيجة للتوسع المتواصل في مرافق الشركة وازدياد احتياجاتها من البضائع والخدمات . وبلغ مجموع ما دفعته الشركة الى المؤسسات المحلية عن بضائع وخدمات خلال العام ١٠٨٤٢٠٠٠٠٠ ريال مقابل ٣٨٧٥٠٠٠٠٠ ريال في عام ١٩٧١ .

وفي مجال التنمية الصناعية المحلية ، واصلت الشركة تقديم المساعدات المالية والفنية الى أكثر من ٤٠ من أصحاب المؤسسات التجارية السعودية بغية زيادة حجم البضائع والخدمات المتوفرة للجمهور وأرامكو ، والتي بلغت قيمتها ١٦٧٧٠٠٠٠٠ ريال .. كما ساعدت الشركة في افتتاح أربع ورش خدمة رئيسية في الدمام والخبر بالاضافة الى ثلاث أخرى جرى توسيعها وتجديدها . وتشمل الخدمات التي توفرها هذه الورش السبع لأرامكو والشركات الأخرى ، اصلاح الصمامات ، وصيانة الأجهزة الألكترونية واصلاح وحدات تكييف الهواء ، وحفر آبار الماء ، واصلاح المعدات الثقيلة .

ومن بين المساعدات الفنية التي قدمتها أرامكو لرجال الأعمال السعوديين ، ان كفلت قرضا استدانه أحد رجال الأعمال لتأسيس عيادة لطب الأسنان في الخبر مما ساعد على توسيع نطاق الخدمات الصحية المتوفرة للجمهور .. كما كفلت أيضا قروضا لانشاء مصنع للقوارير الزجاجية بلغت قيمتها ٨٨٠٠٠٠٠ ريال .

ومن ناحية أخرى ، ساعدت الشركة مقاولا محليا في تأسيس مدرسة للحام في الخبر .. وفي نهاية العام ، أكمل ٨٤ عاملا من عمال المقاولين المحليين ، برنامجا للتدريب على الل[...] فأصبحوا لحامين معتمدين ..

وفي مجال المساعدات الزراعية ، ت[...] حوالي ١٢٨ مزارعا ارشادات فنية في أسال[...] الزراعة وادارة مزارع الدواجن عن طريق ق[...] المساعدات الزراعية .. وقد أدت هذه المساعد[...] الى ارتفاع الدخل الاجمالي لأولئك المزار[...] الى ٢٣٦٨٤٠٠٠ ريال ، أي بزيادة ٦٠ [...] المائة على ما كان عليه في عام ١٩٧١ ..

وبلغ عدد المدارس التي بنتها أرامكو بموج[...] اتفاقية مع الحكومة العربية السعودية حتى ن[...]





العام ٤٥ مدرسة .. كما بلغ مجموع ما أنفقته الشركة على انشاء هذه المدارس وتشغيلها وصيانتها ١٨٤٦٤٤٠٠٠ ريال ..

وقد وسعت الشركة برنامج الاتصال بالمدارس بحيث شمل مدارس البنات في المنطقة الشرقية .. ويهدف هذا البرنامج الى تعريف طلاب المدارس والجامعات ومراكز التدريب المهني بصناعة الزيت عن طريق المعارض والأفلام التثقيفية .

دفعت الشركة الى كلية البترول والمعادن القسط الأخير من عدة دفعات بلغت في مجموعها ٦٠٠٩٢٠٠٠ ريال وذلك ضمن برنامج انشائي يهدف الى توسعة مرافق الكلية لتمكينها في النهاية من استيعاب ٣٠٠٠ طالب . ومن جهة أخرى وظفت أرامكو حتى الآن ٦١ طالبا من طلاب الكلية للحصول قبل تخرجهم على خبرة عملية لمدة سنة في احدى صناعات القطاع الخاص .

وعلى صعيد مكافحة مرض التراخوما ، فقد واصلت الشركة بالتعاون مع جامعة هارفرد الأمريكية أبحاثها العلمية في المنطقة الشرقية من المملكة في محاولة لايجاد لقاح ضد هذا المرض .. ■

من المشاريع التوسعية التي اضطلعت بها أرامكو خلال عام ١٩٧٢ اقامة خزانين للزيت الخام في منطقة تخزين جديدة أنشئت في شمالي الفرضة في رأس تنورة لتزويد الناقلات بالزيت .. وتبلغ سعة كل منهما مليون برميل .

احدى دورات التدريب على أعمال الرئاسة التي تقيمها الشركة لتطوير مهارات الموظفين ذوي الامكانات العالية في الشئون الرئاسية والادارية .



قصة قصيرة

دعاء اليمام

بقلم الاستاذ حسين قباني

كانت ساعة الحائط الكبيرة ، العتيقة ، تدق معلنة انتصاف النهار .. الدقات تتوالى ببطء ورتابة مرسلة رنينها الأجوف في البهو الكبير للدارة « الفيللا » . وكانت « السيدة حميدة » وهي سيدة في منتصف العمر ، تنصت الى الدقات البطيئة الرتيبة والى رنينها الأجوف ، فتشعر بانقباض مفاجئ ، حاولت ، على غير جدوى ، أن تخفف منه .

وانتهت دقات الساعة الاثنتي عشرة وظل صدى رنين الدقة الأخيرة لحظات ، أعقبها ذلك السكون العميق الذي يرين عادة على الدارة والحديقة المحيطة بها ، والمطلة على النيل .

ولكن الانقباض الذي ران على قلب السيدة حميدة لم يتلاش مع تلاشي رنين الدقات ، وانما ازداد عنفا حتى شعرت كأن أنفاسها تختنق في صدرها ، وأن دقات قلبها تسرع في النبض ويكاد أن يكون لها في سكون الدارة صوت مسموع

ورغما عنها أخذت أفكارها تنطلق بعيدا مرفرفة حول ابنها الوحيد ممدوح ، الطالب بالمرحلة الاعدادية ، والذي ذهب في ذلك اليوم في رحلة مع فرقته المدرسية الى ضاحية حلوان ..

لقد شعرت في الصباح ، وهو يقبلها مودعا ، سعيدا ، بشيء من هذا الانقباض ، ولكن سرعان ما تخففت منه مطمئنة الى أن الفرقة ستذهب في سيارة المدرسة ، وسيكون معها مشرف أو أكثر ، وأن ضاحية حلوان لا تبعد أكثر من ثلاثين كيلومترا عن قلب القاهرة ، وأن السيارة ستقطعها في نصف ساعة على الأكثر ، وأن الطريق اليها آمن خال من أي خطر ..

وهزت رأسها في محاولة للسخرية من مشاعر الانقباض التي تجثم على صدرها ، ثم نهضت الى الشرفة الواسعة الملحقة بالبهو ، والمطلة على الحديقة الواسعة .

وما كادت تصل الى الشرفة حتى توقفت رغما عنها وهي تنظر الى أرضيتها اللامعة . لقد رأت يمامة صغيرة راقدة على الأرضية وقد مالت على جنبها وأخذت تحرك جناحها الأعلى ببطء ، وكأنما هي في النزع الأخير .

ونسيت السيدة حميدة مشاعرها الخاصة أمام هذا المنظر الذي أفعم قلبها بالعطف على اليمامة الصغيرة الراقدة وهي تنتفض ، ولا شك بالألم ، دون أن تستطيع الافصاح عن آلامها حتى بالصوت .

الصوت .. صوت اليمام .. دعاء اليمام .. الدعاء الذي يشبه قول المترنم « وحدوا ربكم » ..

لقد عاشت الأشهر الأخيرة وهي تحرص على سماع هذا الدعاء في بواكير الصباح من كل يوم .. ولعل هذه الأشهر الأخيرة هي الفترة الوحيدة التي شعرت خلالها بالسكينة تغمر روحها منذ وفاة زوجها .. منذ أن وجدت نفسها تواجه الحياة مع ابنها الصغير في هذه الدارة الواسعة التي تتوسط حديقة غناء مطلة على النيل .

كان هذا الدعاء كالبلسم الذي قضى على هذه الآلام الخفية .. آلام الشعور باليأس وبأن الحياة لم تعد جديرة بأن يحياها الانسان بعد أن فقد شريك العمر .

وأصبح دعاء اليمام في الصباح الأنشودة التي تتفتح لها مشاعرها بالأمل .. وبالرغبة العارمة في أن تعيش حتى ترى ابنها الوحيد رجلا مثل أبيه .. رجلا ناجحا ، ومواطنا صالحا ، وزوجا عطوفا ، وأبا سعيدا .

ولكن ها هي ذي اليمامة التي كانت ترسل في كل صباح ذلك الدعاء بصوتها الحاني ملقاة أمامها ، مهيضة الجناح ، تنتفض في صمت ، كأنها في النزع الأخير .

قد تكون هي وقد لا تكون .. ولكن المؤكد أنها يمامة .. وأن كل يمامة تترنم بالهديل دعاء جميلا : « وحدوا ربكم » .

وانحنت الست حميدة بجوار الطائر الصغير ، وبأصابع ترتعد من فرط التأثر والحنان تناولت اليمامة بين كفيها في رفق وراحت تمسح على ريشها الناعم حتى هدأت اليمامة وتوقف انتفاضها وأخذت ترنو بعينها المستديرة الصغيرة الى وجه السيدة كأنما تريد أن تشكرها .

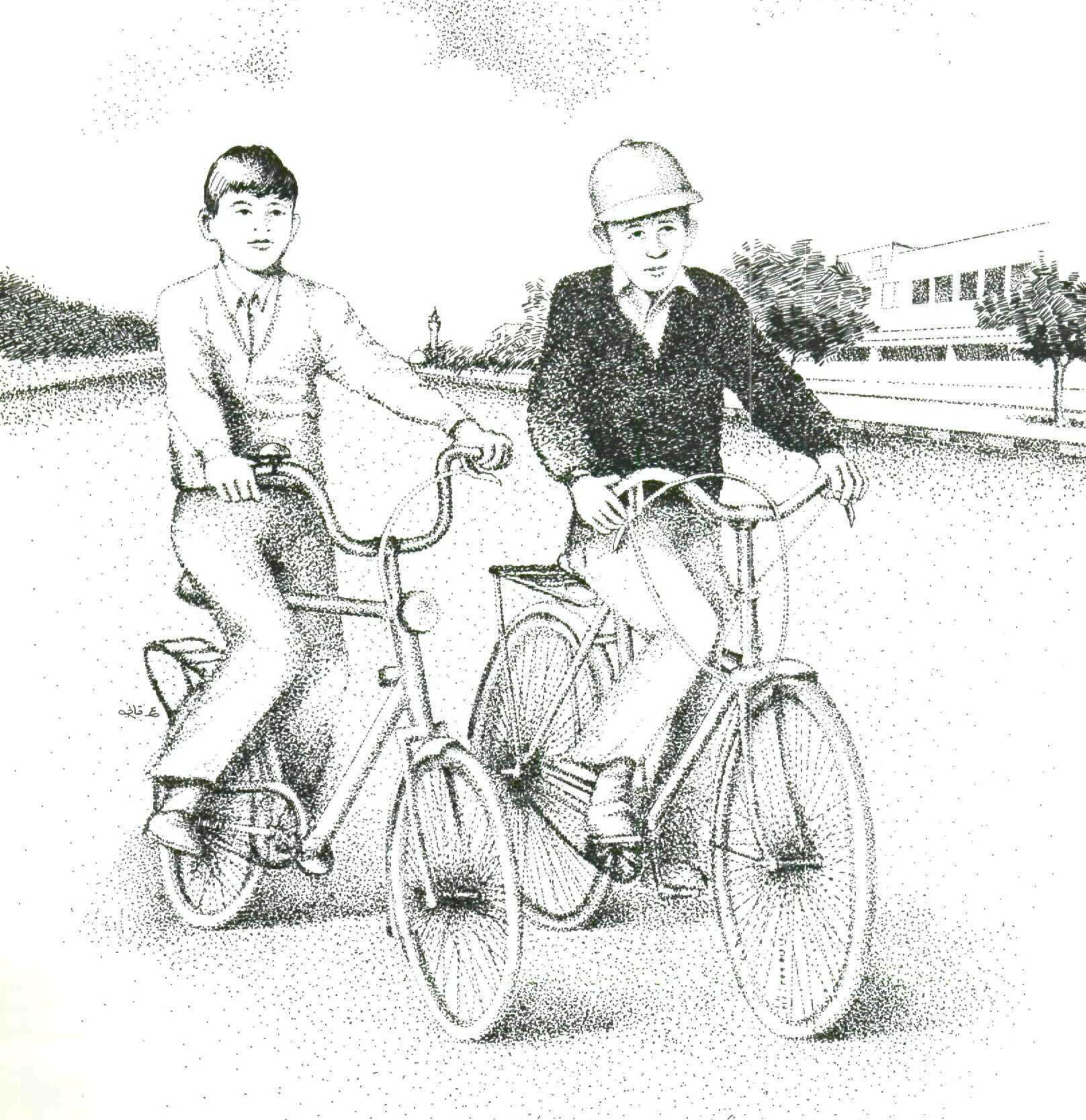
وشرعت الأصابع الحانية تبحث عن الاصابة في جسد الطائر الصغير ولم تلبث أن عثرت عليها .. كسر في الساق الدقيقة النحيلة .. لا شك أنها من حصاة طفل عابث .

وفي لحظات قليلة كانت السيدة قد نظفت الجرح ورضت الكسر ، وشدت عليه بقطعة من الشاش وعود كبريت جعلت منه « جبيرة » ، ثم أعدت لليمامة مكانا مريحا بعد أن أطعمتها وأسقتها .

وقالت السيدة لنفسها بعد أن فرغت من هذا كله :

« لم أكن أتصور أن تدريبي على الاسعافات الأولية سيطبق على هذا الزبون الأول » ، وجلست على مقعدها الوثير بجوار « مريضتها » ..

ويبدو أن النوم غلبها على أمرها .. لأنها تنبهت فجأة لتسمع ساعة الحائط الكبيرة العتيقة ، ترسل دقاتها في بطء ورتابة ، وراحت



تسمع وتعد .. دقة واحدة .. دقتان .. ثلاث دقات .. أربع دقات .. خمس دقات ..

وانتفضت السيدة حميدة واقفة ، وقد انتابها في هذه المرة احساس بالهلع .. وليس الانقباض فقط .

لقد تأخر – ابنها عن الموعد المقرر للعودة ساعتين ، فاتصلت بالمدرسة تليفونيا ولكن لم يرد عليها أحد .

وشرعت تجوس خلال الدارة وهي تفرك يديها في اضطراب عنيف .. ولما عجزت عن مزيد من الاحتمال ، ارتدت ملابسها بسرعة ، وانطلقت في سيارة الى المدرسة تسأل عن سر تأخر ابنها ..

وقال لها الساعي :

– لقد عادت الفرقة من رحلتها يا سيدتي منذ ساعتين ..

وكادت السيدة أن تقع مغشيا عليها ، لولا أن تمالكت نفسها بما يشبه المعجزة ، وتمتمت بصوت خافت شاحب :

– وممدوح .. ابني .. ممدوح راشد ..

وهز الساعي رأسه وقال :

– لقد عاد مشرف واحد مع التلاميذ .. أما الآخر فقد بقي في حلوان يبحث عن تلميذ تخلف هناك .

وكررت السيدة العبارة الأخيرة :

– تلميذ !! تخلف ؟؟ هناك !!

ورغم احساسها العميق بأن التلميذ المتخلف هو ابنها الوحيد ممدوح ، الا أنها تمتمت كالغريق المتعلق بقشة :

– ألا تعرف اسم هذا التلميذ ..

وبدا بوضوح أن الساعي يعرف الاسم ، ولكنه أراد أن يتجاهل ترفقا بالأم الملتاعة ..

ولم تحاول هي أن تطلب منه المزيد ، وانما اندفعت بسيارة الى ضاحية حلوان ، ووصلت اليها وهي لا تدري كيف وصلت .. وأسرعت الى قسم الشرطة . وهناك علمت أن ابنها أصيب في حادث ، وأنه يعالج في مستشفى خاص ، وأن القسم أرسل اليها اخطارا بالحضور لاستلام ابنها..

ولا شك أن الاخطار وصل بعد أن غادرت هي دارتها .

وفي شبه غيبوبة وصلت الى المستشفى الخاص لتجد ابنها وقد بدأ يفيق من المخدر بعد أن أجريت له عملية سريعة لتضميد جرح عميق في الرأس .

وظلت الأم تهتف وهي في شبه غيبوبتها :

– « الحمد لله .. قدر ولطف .. قدر ولطف .. »

ولما أفاقت وجدت بجوارها ، في غرفة المستشفى ، مع ابنها الراقد ، رجلا في منتصف العمر .. الدكتور مجدي .. ينظر اليها باسما ، مهنئا بسلامة الابن العزيز .. انه الدكتور الذي أنقذ الابن في اللحظة الأخيرة ، والذي أجرى له العملية السريعة لوقف النزيف وتضميد الجرح العميق في مؤخرة الرأس .

– ماذا حدث ؟؟

وعلمت كل شيء ..

لقد وصل التلاميذ الى ضاحية حلوان بسلام .. وقبيل الظهر كانوا يستريحون في الحديقة اليابانية التي تقرر أن يتناولوا فيها طعام الغداء في الواحدة بعد الظهر تماما .. وأطلق المشرفان التلاميذ يلعبون ويمرحون بالحديقة.. وقال ممدوح ، الابن ، لسالم ، صديقه الحميم في الفرقة :

– ما رأيك يا سالم لو استأجرنا دراجتين لمدة ساعة نطوف بهما الضاحية من أقصاها الى أقصاها ..

وفرح سالم بالفكرة ..

– ولكن أين نجد محلا لتأجير الدراجات ..؟

– لمحت محلا من هذا النوع في شارع قريب من الحديقة ..

وتردد سالم قليلا وهو يقول :

– ألا يعاقبنا الأستاذ كامل لو علم بالأمر .. ؟

– ومن أين له أن يعلم .. لسوف نعود في موعد الغداء ، ولن يشعر بغيابنا أحد ..

وانطلق الغلامان الى محل تأجير الدراجات ، واستأجر كل منهما دراجة بعد أن اطمأن صاحب المحل اليهما .. وانطلقا سعيدين يغردان في شوارع الضاحية الهادئة كأنهما طائران طليقان يهيمان في عالم من الأحلام الوردية .. وحرص كل منهما في أول الأمر أن يبقى مع صاحبه ، ولكن حدث أن انحرف أحدهما الى اليسار في طريق ممتد ، وانحرف الآخر الى اليمين .. ولما حاولا أن يلتقيا ، ضل كل منهما طريقه الى الآخر ..

ولم يجزع أحدهما كثيرا .. فقد كان طريق العودة الى الحديقة اليابانية سهلا ومؤكدا ، حتى لو اضطر لأن يسأل عن الاتجاه اليه .

ووجد ممدوح نفسه ينطلق من شارع الى آخر وهو ينعم باحساس الرحالة المستكشف .. فقد كانت تلك أول مرة يزور فيها هذه الضاحية الجميلة.. وكان يعلم أن الصحراء ووادي « حوف » يمتدان من أحد أطرافها .. وكان يتمنى أن يرى منطقة صحراوية تمتد الى غاية البصر .. وهكذا راح ينطلق من شارع الى آخر حتى وجد نفسه في طريق يمضي الى خارج المدينة .. لا شك أنه الطريق الذي يمضي الى وادي « حوف ».. ترى هل سيرى غزالا شاردا .. ؟ أو ذئبا ؟ أو ضبعا ؟ وكيف يكون الحال لو فوجئ بأسد ؟ ألا تعيش الأسود في الصحاري كما تعيش في الغابات ؟ هل يستطيع في هذه الحالة أن يسبق الوحش بدراجته .. ؟

وخامره احساس مفاجئ بالخوف .. انه يتلفت حوله فلا يجد أحدا على مدى البصر ، وقرر أن يعود أدراجه .. وفيما هو يدور بالدراجة ، فوجئ بسيارة نقل كبيرة تندفع نحوه من طريق جانبي ، وقد شق الجو صريخ بوقها.. واضطرب ممدوح للمفاجأة ، ووثب بعيدا عن مسارة السيارة ناجيا بنفسه .. ولكنه سقط على صخرة حادة وارتطم فيها بمؤخرة رأسه ، وفقد وعيه ..

ويستكمل الدكتور مجدي الحديث بقوله انه كان في طريق العودة من رحلته الى وادي حوف. ولمح من بعيد دراجة ملقاة على جانب الطريق ، وغلاما ملقى بجوارها كأنه جثة هامدة ، ولم يتردد لحظة في الهبوط لبحث الأمر .. وسرعان ما تنهد في ارتياح حين وجد الغلام لا يزال على قيد الحياة رغم الدماء الكثيرة التي نزفت من الجرح. وبعد أن ضمد الرأس ، حمل الغلام في سيارته الى المستشفى الخاص بعد أن أخطر قسم الشرطة الذي قام بالاجراءات اللازمة في مثل هذه الحالات

وفي قسم الشرطة عرف الأستاذ كامل أحد المشرفين بما حدث ، فقرر أن يبقى بجوار التلميذ حتى يتمكن من حمله معه الى بيت أسرته ..

وتمتمت الأم وهي تفرك يديها :

– الحمد لله .. قدر ولطف .. قدر ولطف ..

وأصر الدكتور مجدي أن يحمل الأم والابن في سيارته الى دارتهما في القاهرة .

وفي الطريق علمت السيدة حميدة ، الأم ، أن الدكتور مجدي أرمل ، وأنه لم ينجب أولادا في حياته ، ولكنه – رغم هذا – كان يشعر بما يمكن أن يحدث للأب ، أو الأم ، لو مات الابن في حادث كهذا ..

وهو يعترف أن هاتفا – لا يدري سره – جعله يعود من وادي « حوف » الى الضاحية من هذا الطريق بعد أن كان ينوي العودة من طريق آخر ..

ووصل الركب الى الدارة .. وأسرع البستاني يحمل الابن المصاب الى فراشه ، وما كادت السيدة حميدة تدخل البهو الكبير مع الدكتور مجدي ، حتى سمعت هديل يمامة يشبه قول المترنم : « وحدوا ربكم .. وحدوا ربكم .. » .. ■

نجد

للدكتور محمد رجب البيومي

أكذاك يُضرمُ نارَه الوجدُ … لله ما صنعتْ بنا نجدُ
يتّمتُها فلمستُ لاعجةً … في الصدرِ شطّ بمثلها العهدُ
هبّ النسيمُ بها صَباً ضمنتْ … أنْ ليس ينشى عِطْرها فردُ
أوحتْ هوىً لم أدرِ رَبّتَهُ … لكنّه يغلو فيشتدّ
يبدو لنا المغنى فنعشقه … عجبًا وما مِنْ قاطنٍ يبدو
أتُرى القلوبُ تَرى على ولهٍ … ما لا تراه الأعينُ الرُّمْد
عرفتْ ربوعَ الحُسنِ فهي بها … حَيْرى الشغاف تروحُ أو تغدو
أأكون في نجد وأذهلُ عن … «قيس» وما أنا صخرةٌ صلْد !
بلوايَ بلْواهُ فإن سألوا … عمّا دهاهُ فعنديَ الرد !
بل زدتُ عنه فلُذتُ مكتئبًا … بالصمتِ وهو مغرّد يشدو
صاغَ النسيب فكلِ غانيةٍ … تَروي وكل مُرنّم يحْدو
قاستْ به نجدٌ وساكنُها … وتخاتلتْ أعطافُها الملْد
تتزافرُ الغاداتُ إنْ خطرتْ … ذكراهُ فهو الفارس النجد
يَحْسدن (ليلى) أن به ازدهرتْ … صيتًا ورفرفَ فوقها المجد
رضعَ البيانَ بمهدهِ سَلِسًا … عذبا ، ونجدٌ للحجا مهد
الضّالُ والسّلَمُ الوريقُ بها … يُوحي ، فكيف البانُ والرّند
وعلى الأراكِ حمائمٌ هتفتْ … سحرا فطاب لقومها السهد
سَرقوا لُحونَ الطير فانبعثتْ … شعرًا له في العالَم الخُلْد
لا أرغبُ (الأعشى) فبي حَيَدٌ … عنه ، ولو أصغى له الحَشْد
(صناجةٌ) قالوا ! وراحتُه … للسّوقة الدّهماء تمتد
لا عن شعورٍ فاض مِقْولُه … بل دأبُه الاعْمالُ والكدّ
أهوى الشعورَ يشبّ مندفعا … فيهيجُ صاحبُه ويحتدّ
ويصوغ منفعلاً روائعه … جذواتِ حسّ ، كلها وَقْد
كحنين مَن هاموا بذي سلم … كنسيب من سلفتْ بهم نجدُ
أأعيشُ في نجدٍ ويحضرني … من أهلها ما يُخطئ العَدّ
تنْدى (عشياتُ الحِمَى) سَمَرًا … ويفوحُ في أرجائها النّد
(والصمة) المسكين شاعرها … بالشّام يُرْمضُ قلبَهُ البُعد
يرجُو عشياتِ الحمَى دَنفًا … وأعيشها ، إني إذنْ وغدُ (١)
أذكرْتُ قصّته فخُيّلَ لي … أني أراه ، ودونه اللحد

* * * *

قَالوا توغّل في القديم فهلْ … بيْن الحديثِ وعينه سدّ!
رحلتْ به للغيب ذاكرةٌ … ترتادُ ما ينأى به العهد
قلتُ القديمُ لَهُ قداستُه … ان كنتَ في نجدٍ ، فما تعدو
هِي في الحديث كغيرها وطنٌ … في كلّ ناحية لها نِدّ
سحّت قديما للنّهى غَدَقًا … منه لكلّ مدينةٍ رِفْدُ
فانزع من الأشعارِ ما هتفتْ … ماذا لعينك بعدها يبدو !
حتى صَباهَا هاجرتْ أمدا … مِن حيّها ، وتدافعت تعدو
حنّ (الشريفُ) مع العراق لها … فإذا العراق كأنه نجدُ
والتاع (مهيارٌ) فمهجتُه … بيد الصَّبا يهتاجها الوجد
نَفَسٌ بلفح الشوقِ ملتهبٌ … لكنّما نسمَ الصّبا بَرد
أأعدّ من عشقوا الصَّبا سلفًا … ربّاه ، ضلّ بمثليَ القصدُ

* * * *

يا نجدُ جئتُك شاعرا قَصُرتْ … آمالُه وكبَا بِه الجهْد
زيفُ الحضارةِ ليسَ يُعجبُني … فأنا الى ماضيكَ أرتد

د. محمد رجب البيومي – الرياض

---

(١) اشارة الى قول الصمة ، وقصته مشهورة:

وليست عشيات الحمى برواجع … اليك ولكن خل عينيك تدمعا

الكتاب بعد اختراع المطبعة

بقلم الدكتور خليل صابات

يجدر بنا قبل أن نتكلم عن الكتاب بعد اختراع المطبعة ، أن نعود الى اختراع المطبعة نفسها باعتبارها الأداة التي أسهمت في نشر الكتاب وجعلته في متناول الجميع ، بعد أن كان مقصورا على القلة القليلة من الناس .

ويقال أن الصينيين عرفوا الطباعة بالألواح الخشبية قبل الميلاد بثلاثمائة سنة على أقل تقدير . ويرى بعض المؤرخين أن هذا اللون من الطباعة انتشر في الغرب عقب عودة « ماركوبولو » الرحالة الايطالي من الصين في سنة ١٢٧٢م . ويرى مؤرخون آخرون أن الملاحين الهولنديين هم الذين جاءوا بهذه الطريقة من النسخ السريع خلال القرن الرابع عشر . الا أن بعض الباحثين يجزم بأن الطباعة بالألواح الخشبية عرفت في بلاد الصين قبل الميلاد بألف وستمائة سنة .

ولكن ما هي الطباعة بالألواح الخشبية ؟

كان الطابع اذا أراد أن يطبع كتابا ، أحضر لوحات خشبية وسوى سطحها ونعمه ، وكتب عليه النصوص المراد طبعها كتابة معكوسة أو مقلوبة . وكان أحد الفنانين يقوم بحفر أجزاء الخشب الخالية من الكتابة فتظهر الحروف بارزة على اللوحة ، فتحبر وتوضع عليها الورقة التي يراد طبعها ، وتمرر أسطوانة على الورقة فتظهر عليها الكتابة واضحة . وأن الكتب الأولى التي طبعت في أوروبا بهذه الطريقة تعود الى حوالي سنة ١٤٣١م .

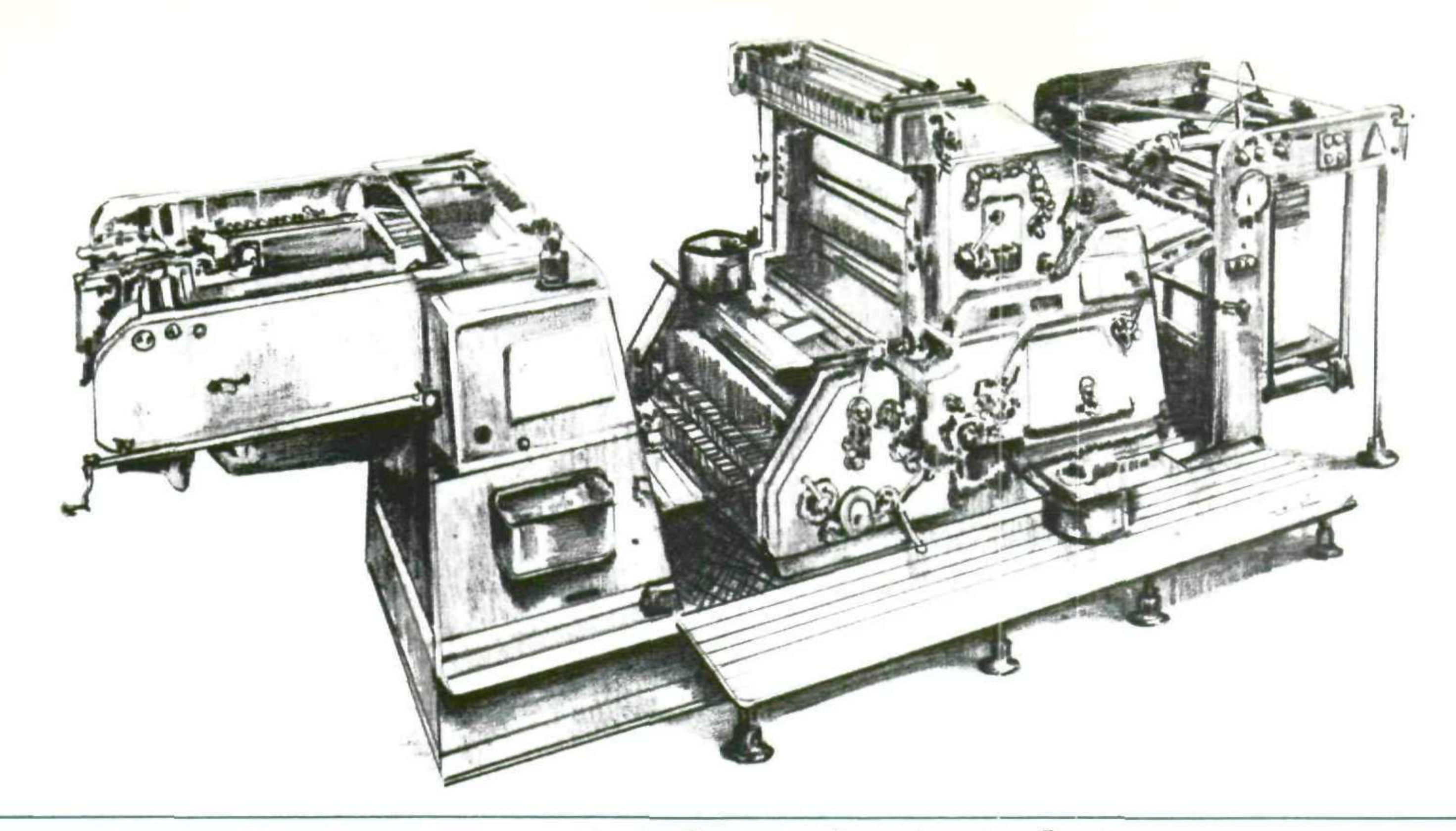
غير أن طريقة الألواح هذه لم تكن عملية قط ، اذ أنه كان لا بد من اعداد عدد من الألواح الخشبية مساو لعدد صفحات الكتاب المراد طبعه وكانت الحروف غير متناسقة ، وأخطاء الحفار تصحح بصعوبة ، يضاف الى ذلك أن الألواح كانت تبلى بعد مدة قصيرة ، ناهيك بالكميات المطلوبة منها في حالة طبع كتاب ضخم ، وبمساحة المكان الذي تحتله هذه الألواح في المطبعة . ولكن اذا قارنا بين الطباعة بالألواح الخشبية وبين النسخ باليد الفينا الانسان قد قطع شوطا لا بأس به في مضمار النسخ الآلي . ومهما يكن من أمر هذه الطباعة ، فانها كانت مرحلة انتقال بين الكتاب المخطوط والكتاب المطبوع بالحروف المعدنية المتفرقة .

دعت عيوب الطباعة بالألواح الخشبية الى التفكير في حفر حروف معدنية منفصلة بعضها عن بعض ، فأمكن بهذه الطريقة جمع الحروف المتفرقة لتكوين الكلمات في تناسق تام . فاذا ما فرغ من طبع كتاب من الكتب ، استخدمت هذه الحروف ذاتها في طبع كتاب أو كتب أخرى . وكانت المحاولات الأولى لاختراع الطباعة بالحروف المعدنية المتفرقة تجري في تكتم شديد حتى لا يستطيع القراء التمييز بين ما ينتج عن طريق هذا الفن الجديد وما ينتجه الناسخون . فالطباعة في أول أمرها لم تكن الا محاولة ميكانيكية، الغرض منها تقليد عمل الناسخين وبيع الكتب المطبوعة على أنها منسوخة . ولم يكن هؤلاء المقلدون يكتبون أسماءهم ولا تاريخ الطبع ولا مكانه على كتبهم، خوفا من أن يكشف أمرهم فتضيع عليهم الأرباح التي يجنونها من وراء هذا العمل . وعلى ذلك ادعت سبع عشرة مدينة أنها اخترعت الطباعة ، ولكن ثلاثا منها فقط استطاعت أن تدعم زعمها بالأسانيد ، وهي : « ستراسبورج » في فرنسا ، و « منتز » في المانيا ، و « هارلم» في هولندا .

ويتفق معظم المؤرخين على أن « يوحنا جوتنبرج » هو أول من فكر في اختراع الطباعة بالحروف المعدنية المتفرقة. وقد بدأ محاولاته في مدينة « ستراسبورج » في حوالي سنة ١٤٣٦م ، واستأنفها في « منتز » في حوالي سنة ١٤٤٥ م ، وأخرج أول كتاب مطبوع بهذه الطريقة الجديدة في سنة ١٤٥٥م ، وما لبث أن انتقل هذا الفن الى ايطاليا وسويسرا وبريطانيا وبلجيكا وفرنسا وأوروبا الوسطى وبولندا وروسيا .

---

(١) نشرت « قافلة الزيت » في العدد الماضي بحثا عن « الكتاب قبل اختراع المطبعة » للكاتب نفسه .



رسم يمثل جانبا من آلات الطباعة الحديثة التي تستخدمها شركة مطابع المطوع بالدمام في طباعة « قافلة الزيت » .

وكانت حلب أول مدينة في الوطن العربي يطبع فيها كتاب بالحروف العربية سنة ١٧٠٦م وتلتها قرية لبنانية صغيرة في سنة ١٧٣٤م ، وهكذا وشيئا فشيئا عرف العالم العربي الطباعة بالحروف المعدنية المتفرقة ، وامتلأت المكتبات العربية بالكتب المطبوعة .

ولكن كيف كان شكل الكتاب عندما تم اختراع المطبعة في حوالي منتصف القرن الخامس عشر؟

لم يكن الكتاب المطبوع يختلف في أول عهده من حيث الشكل عن الكتاب المنسوخ . فقد كان الطبع تقليدا للنسخ ، وكانت الحروف نفسها تقليدا للحروف المكتوبة باليد . بل أن الحروف الأولى لأبواب الكتاب كانت تترك للخطاطين والمزخرفين لكي يكتبوها بالحبر الأحمر . وكان يصعب على القارئ أن يفرّق بين الكتاب المطبوع والكتاب المنسوخ . ولكن شيئا فشيئا أخذ الكتاب المطبوع ينفصل أو يبتعد عن نموذجه الأصلي ، الكتاب المخطوط أو المنسوخ ، لكي تصبح له ميزاته الخاصة به . وكانت الكتب تطبع بالحروف القوطية والحروف الرومانية والايطالية المائلة ، حسب نوع الكتاب . ولكن سرعان ما عمّ استعمال الحرف الروماني في أغلب البلاد الأوروبية ، فقد عرفته ايطاليا وفرنسا وجزء من سويسرا ثم اسبانيا وانجلترا . لقد فرض هذا الحرف نفسه على أغلب مطابع أوروبا بعد اختراع الطباعة بأقل من مائة سنة . ولم يخرج عن هذا الاجماع الا المطابع الالمانية التي ظلت تستخدم الحرف القوطي ، خاصة في طبع المؤلفات المكتوبة باللغة الدارجة . وقد اضطر « مارتن لوثر » أن يستخدم هذه الحروف لتقرأه جماهير الشعب الالماني ، فالعالم اللاتيني وانجلترا من ناحية كانا يطبعان بنوع من الحروف ، والعالم الجرماني كان يطبع من ناحية ثانية بحروف أخرى . أما البلاد السلافية فقد اختارت لنفسها نوعا ثالثا مختلفا تمام الاختلاف عن النوعين السابقين ، الا وهو الحرف « الكيريللي » الذي اقتبس شكله من الكتابة الاغريقية القديمة .

وان القارئ اليوم حين يفتح كتابا حديثا يعرف أنه سوف يجد ، منذ الصفحة الأولى ، كل البيانات التي تشير عليه بقراءة الكتاب أو التي تصرفه عن قراءته . ففي صفحة العنوان يذكر اسم المؤلف وعنوان الكتاب ومحل النشر واسم الناشر وتاريخ الطبع . وتنص معظم قوانين النشر في العالم ، على ضرورة ذكر هذه البيانات .

أما قراء القرنين الخامس عشر والسادس عشر فكانوا يضطرون الى تصفح الكتاب طويلا قبل أن يصلوا الى معرفة هذه البيانات . فلم تكن ثمة صفحة مخصصة للعنوان في الكتب التي طبعت في أول عهد الطباعة ، اذ كان النص يبدأ من وجه الورقة الأولى بعد صيغة قصيرة يبين فيها عادة موضوع الكتاب وأحيانا اسم مؤلفه . وحتى بداية القرن السادس عشر ، كان يجب البحث عن بقية البيانات في آخر الكتاب ، حيث اعتاد الطابعون ذكر مكان الطبع واسم الطابع وفي أحيان كثيرة العنوان الدقيق للكتاب واسم مؤلفه .

وقد أضيف عنصر جديد من عناصر تحقيق شخصية الكتاب ابتداء من القرن الخامس عشر ، ألا وهو علامة المطبعة ، وكانت تحفر على الخشب . فقد اختار أحد الطابعين « الهلب » علامة تجارية لمطبعته ، واختار آخر « شجرة الزيتون » ، وثالث رسم « سفينة » وهكذا . وبعد أن كانت هذه العلامة توضع في آخر الكتاب انتقلت الى صفحة العنوان لتسهم في زخرفتها . ولما كان وجه الورقة الأولى من الكتب معرضا أكثر من أية صفحة من صفحاته للاتساخ ، فقد فكر بعض الطابعين في البدء بطبع الكتاب من ظهر الورقة الأولى التي ظل وجهها أبيض . وبطبيعة الحال أخذوا يطبعون على هذه الصفحة التي ظلت بيضاء عنوانا مقتضبا كان يسهل على المطالعين مهمة التعرف الى محتوى الكتاب .

وهكذا ابتداء من سنة ١٤٨٠ ظهرت صفحة العنوان ، وسرعان ما تبينت فائدتها . ولما كان بعض الطابعين يحرصون كل الحرص على حسن اخراج كتبهم ، أقدموا على زخرفة هذه الصفحة بحرف كبير محفور على الخشب كثيرا ما كان يحلّى بأشكال غريبة . وكان طابعون آخرون يضعون في الفراغ الأبيض تحت العنوان علامتهم التجارية أو شكلا محفورا على الخشب .

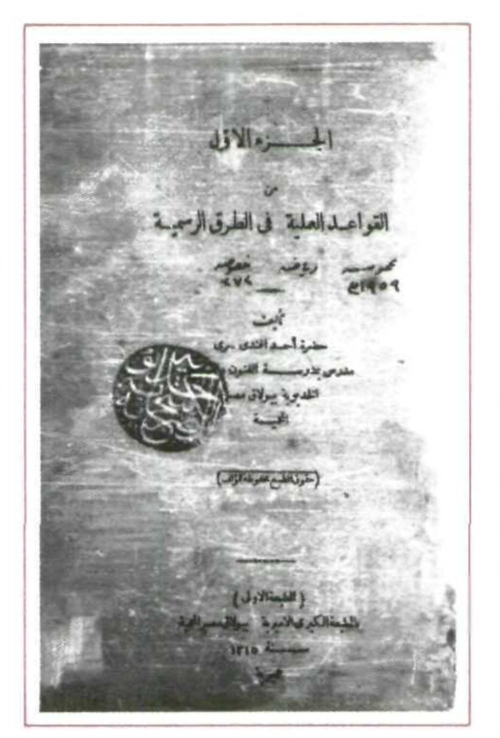
وفي نهاية القرن الخامس عشر أصبح لكل الكتب أو لمعظمها صفحة لاثبات العنوان. ولكن هذه الصفحة لم تكن قد اتخذت بعد الشكل الذي هي عليه اليوم . وكان العنوان في أول أمره ، كما رأينا ، مقتضبا ، ثم أخذ يفرط في الطول . ففي خلال الثلث الأول من القرن السادس عشر أخذ الناشرون يمطون العنوان . وفي أحوال كثيرة كانوا يضيفون اليه بيانا بالأجزاء الرئيسية للكتاب ، وغالبا ما كانوا يلحقون به بيتين من الشعر من نظم المؤلف أو بعض أصدقائه . واذا كان الكتبيون الراغبون في الاعلان عن أنفسهم قد اعتادوا مبكرا اثبات أسمائهم وعناوينهم في أسفل الصفحة كان لا بد من البحث في آخر الكتاب عن بيانات أدق مثل اسم الطابع وخاصة التاريخ الذي انتهى فيه الطبع .

وفي الوقت نفسه أخذ الاهتمام في زخرفة صفحة العنوان يزداد يوما بعد يوم ، فظهرت موجة الاطارات المحفورة . وابتداء من سنة ١٥٣٠ ، صدرت الكتب الجديدة حاملة عناوين قصيرة تظهر وحدها مع اسم المؤلف ، وفي أسفل الصفحة العنوان البيلوغرافي . وبينما كان الحرفان الروماني والايطالي يعمان أوروبا ، اتخذت صفحة العنوان شكلها الحالي رويدا رويدا .

واذا انتقلنا الى نص الكتاب نفسه ، وجدنا أن طريقة اخراجه في السنوات الأولى لاختراع المطبعة لم تكن تختلف عن الطريقة التي كان ينسخ بها من قبل . غير أن الأسطر ما لبثت أن انفسحت والحروف كبرت والغريب أن الكتب ظلت تطبع صفحاتها بدون ترقيم حتى سنة ١٤٩٩ . ولم تعمم طريقة الترقيم هذه الا في الربع الثاني من القرن السادس عشر ، حين اتخذ الكتاب شكله الحالي . وابتداء من هذا التاريخ ، أيضا كف الطابعون عن جمع النصوص في أنهر أو أعمدة ولجأوا الى استخدام الأسطر الطويلة التي تمتد بعرض الصفحة كلها .

وبفضل اختراع المطبعة ووفرة النصوص المطبوعة ، لم يعد الكتاب هذا الشيء الغالي النادر الذي يرجع اليه في مكتبات الجامعات أو المراكز العلمية الأخرى . وأصبح الناس يتطلعون الى اليوم الذي يتمكنون فيه من حمله معهم ونقله بسهولة للرجوع اليه أو قراءته في كل مكان وفي أية لحظة . ومن هنا يمكن أن نعرف سبب النجاح الذي صادفته الكتب ذات القطع الصغير التي ظهرت في الجزء الأول من القرن السادس عشر . فالأدباء والطلبة والعلماء والنبلاء كفوا عن أن يكونوا العملاء الوحيدين للكتاب . لقد انضم اليهم التجار الذين بدأوا يهتمون هم أيضا بتكوين المكتبات الخاصة .

وظل الكتاب المطبوع الفاخر يحلى بالصور والرسوم والزخارف الملونة والمذهبة أحيانا ، شأنه في ذلك شأن الكتاب المخطوط . غير أن هذه الطريقة كانت تستغرق وقتا طويلا ، وكانت تكلف كثيرا ، خاصة حين أصبح الأمر يتعلق بتصوير مئات النسخ وزخرفتها . فقد تبين ضرورة الالتجاء الى طريقة أخرى تتفق والظروف الجديدة التي أحاطت بالكتاب . فكان لا بد من البحث عن طريقة ميكانيكية لنسخ الصور تقابل الطريقة التي تنسخ بها النصوص . ووجد


الجـــزء الاول
من
القواعـد العلية فى الطرق الرسميـة
(الطبعة الاولى)
سنة ١٣١٥

الصفحة الأولى من كتاب «القواعد العملية في الطرق الرسمية» في الرياضة طبع في مصر في عام ١٣١٥هـ.

الطابعون ضالتهم في الخشب المحفور الذي يمكن تثبيته الى جانب الحروف . وكان يلجأ أحيانا الى تلوين هذه الصور المطبوعة بالألوان المائية ، وكانت الكتب المصورة الأولى كتبا شعبية في أغلبها تتناول موضوعات دينية أو أخلاقية .

وفي السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر اختفى الخشب المحفور ، وحل محله بالتدريج الحفر بالمنقش على لوحات معدنية . وعاشت هذه الطريقة الجديدة لطبع الصور والرسوم زهاء قرنين من الزمن . وقد طبعت الأطالس الجغرافية بالحفر على اللوحات المعدنية في هولندة خلال القرن السابع عشر . وقامت الصور المطبوعة على هذا النحو ، بدور اعلامي ملحوظ بين شعوب أوروبا . بيد أن ازدهار الكتب المصورة كان موقوفا على الانتعاش الاقتصادي . فاذا حلت أزمة اقتصادية في البلاد انخفض عدد الصور في الكتب الى صورة واحدة أحيانا ، ربما كانت صورة المؤلف . أما اذا انتعش الاقتصاد ازدادت الصور في الكتب .

واذا كانت الكتب المصورة تتوجه الى سواد الناس في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، فقد اتجهت في القرن الثامن عشر الى ارستقراطية المال من أصحاب المصارف ورجال الأعمال الذين أقبلوا على شراء الكتب السهلة القراءة والتي لا تحتاج الى تركيز فكري عميق . وعوضوا هذا النقص بشراء الكتب التي تحوي أروع الصور المرسومة خصيصا لهم بأيدي أشهر الحفارين على المعدن . بيد أن هذه الكتب الفاخرة كانت وقفا على الهواة الأثرياء . أما الكتاب العادي ، فقد اختفت منه الصور والرسوم ، أو كادت .

وكانت الكتب قديما تجلد تجليدا فاخرا يحفظها أطول مدة ممكنة . وكان يعنى على الخصوص بتجليد الكتب الكثيرة التداول والاستعمال. والسبب في هذه العناية أن المخطوط ، ثم الكتاب المطبوع في أول عهده ، كانا سلعتين نادرتين وغاليتي الثمن ، فكان لا بد اذن من حمايتهما وزخرفتهما . وعلى الرغم من انتشار الكتاب بعد اختراع المطبعة ، فقد ظل حتى القرن الثامن عشر على الأقل مقصورا على النخبة من رجال العلم والثراء . وكانت الكتب الفاخرة تجلد بالقطيفة والحرير والجوخ المذهب ، أما الكتب العادية فكانت تجلد بالجلد بأنواعه المختلفة . وكان المجلدون يعملون بالقرب من الكتبيين وكان كبار الناشرين يملكون مشاغل لتجليد الكتب .

والجدير بالذكر أن الطابعين لم يكونوا يجلدون كتبهم بعد طبعها مباشرة ، فتوفيرا لتكاليف النقل من بلد الى أخرى ، كانت النسخ تعبأ غير مجلدة في براميل ، ولا تجلد الا أولا بأول وبكميات محدودة . وكان بعض القراء يفضلون شراء الكتاب غير مجلد ، ليجلدوه بمعرفتهم وحسب ذوقهم . ولما زاد انتاج الكتاب ، فكر صانعوه في ايجاد طريقة أرخص وأسرع لتجليده ليرضوا عملاءهم الذين أخذ عددهم يرتفع يوما بعد يوم ، وكان أن أحلوا الكرتون محل الخشب كمقو للجلدة . كما ابتكروا طرقا لزخرفة الغلاف أرخص وأسرع . وقد أخذ الايطاليون عن الشرقيين طريقة التجليد بالجلد المذهب ، وما لبث هذا الأسلوب ان انتقل الى فرنسا .

وفي القرن التاسع عشر ، عندما ظهرت الطابعات التي تدور بالبخار ، واخترعت آلة صناعة الورق ، مما أتاح انتاج الكتب بسرعة أكبر وبتكاليف أقل ، انصرف الناشرون عن تجليد الكتاب واكتفوا بتضبيره . وهكذا بينما أخذ عدد الكتب المطبوعة يزداد وبينما أخذت هذه الكتب طريقها الى قطاع من القراء يزداد اتساعا ، أخذ التجليد العادي يفقد تدريجيا من جماله ، ثم من متانته .

الكتاب سلعة

كانت الطباعة منذ أول عهدها صناعة تحكمها القوانين نفسها التي تحكم الصناعات الأخرى . وكان الكتاب سلعة ينتجها الناس ليكسبوا عيشهم قبل كل شيء ، حتى ان كانوا من العلماء والمثقفين . وكان لا بد لهم أولا من أن يجدوا رأس المال الذي يمكنهم من العمل وانتاج الكتب التي من شأنها أن ترضي عملاءهم وبأسعار تصمد للمنافسة . فقد كانت سوق الكتب ، وما زالت ، شبيهة بسائر الأسواق . وكانت تواجه صانعي الكتاب والتجار الذين يبيعونه مشكلات تتعلق بثمنه وبتمويله . وكان ثمن الطابعة والحروف المطبعية منخفضا ، لكن تشغيل المطبعة هو الذي كان يكلف كثيرا ، وخاصة الورق الذي كان ثمنه يمثل الجانب الأكبر من تكاليف طبع الكتاب . وظل الأمر كذلك حتى القرن الثامن عشر .

وكان الطابع ، وهو صانع بسيط ، يحصل على رأس المال اللازم من القروض التي كان يعقدها بضمانة مطبعته وما فيها من أدوات . وقد فقد عدد من الطابعين جزءا كبيرا من أدوات مطابعهم حين عجزوا عن سداد ديونهم . كما اضطر عدد من الطابعين في القرن السادس عشر الى الانتقال من مدينة الى اخرى بحثا عن العملاء ، وكانوا يعيشون غالبا على الكفاف .

وكان الممول يلعب دورا أساسيا في هذه الصناعة . فهو الذي يتحمل المخاطر ، وهو الذي يتولى تصريف الانتاج ، وهو الذي يقوم في أغلب الأحيان باختيار النصوص التي يرى أنها تستحق النشر ، وهو الذي يتولى تأسيس المطابع الكبيرة التي يتم العمل فيها حسب طرق الصناعات الكبيرة .

ويجب ألا ننسى أخيرا في مجال دراسة تمويل نشر الكتاب ، الدور المهم الذي لعبته السلطات العامة كممولة لهذه الصناعة ، فقد تولى بعض رجال الدين تمويل نشر الكتب الدينية . وقامت الدول ومجالس المدن بالدور نفسه بالنسبة لبعض المطبوعات ، وخاصة الوثائق الادارية التي كانت الحاجة ماسة اليها . وقد عاش عدد كبير من الطابعين في المدن الصغيرة على هذه الأشغال .

أما المكتبة العربية فليس فيها حتى الآن — وعلى حد علمنا — أي دراسة أكاديمية مفصلة عن الكتاب العربي ، خاصة بعد اختراع المطبعة ، لذلك نكتفي هنا بما جمعناه من معلومات عن هذا الموضوع أثناء البحث الذي قمنا به عن تاريخ الطباعة في الشرق العربي .

الصفحة الأخيرة من كتاب في علوم الطب ، وتظهر فيه الخاتمة « كولوفون » على شكل مثلثين يحوي الأخير منهما اسم المطبعة وتاريخ الطبع .

لم يمر الكتاب المطبوع في الشرق العربي ، ولا في المغرب العربي على ما نعتقد ، بالمراحل التي مر بها الكتاب في أوروبا . فظروف صناعته هنا تختلف عنها هناك ، اذ أن المطبعة نشأت عندنا في أحضان الحكومات أو المراكز الدينية ، ولم يشذ عن هذه القاعدة الا مطبعة واحدة في حلب أنشأها أجنبي من جزيرة « سردينيا » يدعى « بلفنطي » ، طبعت ديوان أبن الفارض سنة ١٨٤١ ، وهو أول كتاب أدبي يطبع في سوريا . فمطابع الأفراد ظهرت في الشرق العربي بعد مطابع المراكز الدينية والحكومات ، وكانت مطبعة « بلفنطي » هذه وغيرها من المطابع العربية التي تأسست في هذا العهد ، سواء في دمشق أو القاهرة أو بيروت أو بغداد ، لا تطبع الا الكتب المضمون رواجها . ومع ذلك ، ونظرا للمدة القصيرة التي عاشتها ، يستطيع الباحث أن يقول أن الطباعة في منتصف القرن التاسع عشر لم تكن من الصناعات الرائجة نتيجة لقلة عدد القراء وارتفاع سعر الكتاب بالنسبة لسوادهم . هذا ، بالاضافة الى منافسة المطابع الحكومية للمطابع الخاصة ، لا سيما في مصر .

وكان شكل الكتاب العربي المطبوع يشبه الى حد كبير شكل الكتاب المخطوط ، فوجه الورقة الأولى مخصص لعنوان الكتاب واسم المؤلف واسم المطبعة وسنة الطبع . وكانت هذه الصفحة تجمع بنفس البنط الذي تجمع به حروف الكتاب كله ، وشيئا فشيئا أخذ الطباعون يجمعون العنوان ببنط أكبر الى أن ترك أمره الى الخطاطين يكتبونه بخطهم الجميل ، ثم يحفر على الزنك ويصنع له نمط أو كليشيه ، كما هي الحال اليوم . وكانت عناوين الكتب لا تخلو من السجع . ونذكر على سبيل المثال عنوان أحدها ، وهو كتاب « الكنز المختار في كشف الأراضي والبحار » . ولا بأس من أن يتبع هذا العنوان بيتان من الشعر يحثان على قراءته مثل هذين البيتين :

تنزه في بقاع الأرض وانظر
ضياها من سنا هذا الكتاب
وطالعه بانصاف تجده
صحيحا لا يحيد عن الصواب

ثم يأتي في آخر الصفحة اسم المطبعة ، واسم المسئول الذي أمر بطبعه ، واسم المصحح

مسبوقا أحيانا بلقب « الفقير الى الله تعالى » ثم وظيفته ، وسنة الطبع ، واسم الوالي ، وكانت صفحات الكتاب كلها ، بما في ذلك صفحة العنوان ، تحاط باطار يتكون من خطين أحدهما أسمك من الآخر .

أما الصفحة الأخيرة فكانت المطبعة تتفنن فيها مقلدة بذلك الكتب المخطوطة فتختم الكتاب بحمده تعالى على اتمام هذا العمل والصلاة على الرسول الكريم ، صلى الله عليه وسلم .. مجموعة على هيئة مثلث متبوع باسم المطبعة والسنة الهجرية ، وقد نضدا كذلك على شكل مثلث آخر يطلق عليه أهل الاختصاص اسم « كولوفون » ، أي الخاتمة .

وكان يؤخذ على الكتب الأولى المطبوعة كثرة أخطائها المطبعية لقلة عدد المصححين الأكفاء الذين كان البحث عنهم يستغرق الشهور الطويلة .

وكانت المطابع الحكومية في الشرق العربي تطبع لحساب الأفراد أحيانا ، فقد بدأت مطبعة « بولاق » بمصر هذا اللون من المعاملات منذ سنة ١٨٣٦ .

وكان على الملتزم ان أراد طبع أي كتاب أن يأتي بمن يكفله لدى ادارة المطبعة ، وكانت مطبوعات هذه المطبعة تباع في حانوت يملكه كتبيان يتقاضيان عن البيع نصفين من الفضة في كل قرش ، ورفع هذا الجعل بعد ذلك الى ثلاثة أنصاف ، وكانت معظم الكتب التي تخرج من هذه المطبعة ، أو غيرها من مطابع مصر والشام ، في الطب والفنون العسكرية والهندسية وصباغة الحرير والأدب والدين ، وهي كتب كانت تفي بحاجات الناس في ذلك العهد .

وكانت بعض المطابع الحكومية تقدم لكبار الزوار والعلماء الأجانب نسخا من الكتب التي طبعت فيها على سبيل الهدية . وكانت الكتب الفاخرة ترسل الى أوروبا بعد تجليدها وتذهيبها . وقد أرسلت مطبعة « بولاق » بعض كتبها الى معرض باريس الذي أقيم في سنة ١٨٦٧ ، فنالت المدالية الفضية ، اذ كان طبعها على جانب من الاتقان ، وكانت حروفها واضحة ، جميلة وكان الورق المستخدم من النوع الجيد .

ويمكن أن يقال أن صناعة الكتاب في المشرق العربي تجاوبت مع انتشار التعليم والتقدم العمراني والاقتصادي ، فاذا حدث وخبت شعلة هذا التقدم قل الاقبال على الكتاب وكسدت تجارته . ومهما يكن من أمر ، فان هذه الصناعة لم تكن في البلاد العربية مصدراً أكيدا للكسب ، على الأقل حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، حين عم الرخاء جانبا من هذا العالم العربي ، وانتشر التعليم بين طبقات الشعب فيه .

° ° °

ونستطيع أن نؤكد بوجه عام أن التغييرات العميقة التي أحاطت بالمجتمع الانساني أثرت على الكتاب الذي لم يعد مقصورا على قلة محدودة من الناس ، بل أصبح الغذاء الروحي والعقلي الذي يطالب به الجميع ، كما أن الكتاب لم يعد يصنع بوسائل بدائية . وغدا عدد المطابع أضعاف ما كان عليه ، وارتفع بالتالي عدد المكتبات .

وأمام هذا الاقبال الشديد على الكتاب ، اخترعت الطابعة الدوارة وآلات جمع الحروف المعروفة باللينوتيب والمونوتيب . كما اخترع الحفر على الزنك والطبع الغائر والطبع الأملس فأصبح طبع الصور الملونة أمرا سهلا . أما في مجال التجليد فقد اخترعت آلات لخياطة الملازم وآلات لتطبيق الأفرخ وآلات صنع الأغلفة الكتابية وآلات صنع الأغلفة المقواة .

كما ابتكرت حروف مطبعية جديدة تتفق والتقدم الذي حققه الكتاب في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . وقد تأثر الفنانون بالمدارس الفنية المختلفة في أسلوب تنظيم الصفحات وترتيب الحروف والعناوين ، فاضفوا على الصفحة المطبوعة جمالا ورونقا يجتذبان القارئ ويغريانه على القراءة .

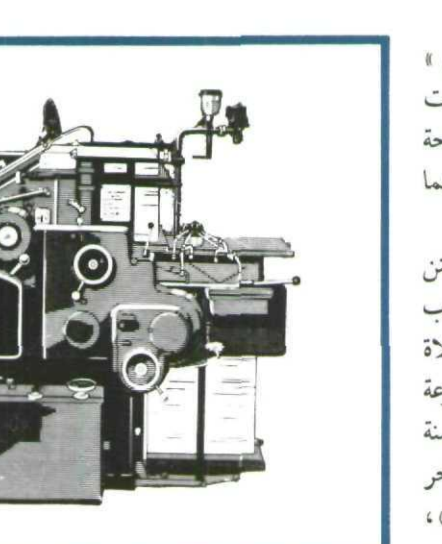
وأثرت الحرب العالمية الأولى على صناعة الكتاب تأثيرا كبيرا ، فقد سارت عجلة الاقتصاد ببطء ، وانقطعت الروابط الثقافية بين الأمم ، مما أثر على تجارة الكتاب وتبادله . وعلى العكس ، فان فترة هذه الحرب التي دامت أربع سنوات ، كانت بمثابة العصر الذهبي للكتاب في البلاد المحايدة ، فقد ارتفع انتاج الكتاب فيها ارتفاعا ظاهرا وامتلأت المكتبات العامة بالكتب .

ودفعت هذه الحرب الحركات الفكرية الى الأمام سواء في أوروبا أو الولايات المتحدة الأمريكية . وأدت هذه الحركات الى تطور المكتبات الشعبية وانتشارها في كل مكان تقريبا من هذا العالم ، بل وفي كل حي من أحياء بعض المدن الكبرى . وفي بعض الدول أنشئت المكتبات العامة المتخصصة ، كما أصبح بالامكان تبادل الكتب بين المكتبات العالمية واستعارتها .

ومن المتوقع ، وقد وصلت صناعة الكتاب الى ما وصلت اليه ، أن يسير فن انتاج الكتاب المطبوع في طريق التجديد . فقد حل محل الجمع المعتاد للحروف المعدنية المسبوكة بالرصاص الجمع الفوتوغرافي على الأفلام. وهو يستخدم الآن في عدد كبير من المطابع في بلاد العالم الغربي وفي اليابان . وعلى الرغم من اختراع وسائل جديدة للطباعة وتقدم صناعة الورق فلا يزال الكتاب يحتفظ بشكله العام الذي عرف به منذ مئات السنين .

وبعد ، فان تقدم الوسائل السمعية البصرية وانتشارها لن يهدد هيبة الكلمة المطبوعة واحترامها وسوف يظل الكتاب خير سجل لحفظ فكر الانسان وتجاربه ، والأداة الحضارية التي لا يمكن الاستغناء عنها مهما تعددت وسائل الاتصال الجماهيرية وتنوعت ■

د. خليل صابات — القاهرة



آلة متطورة تستخدم في طباعة الكتب المختلفة .

اخبار الكتب

* ظهر الجزء الأول من معجم « المساعد » للعلامة الراحل الأب أنستاس ماري الكرملي وقد وقد حققه العالمان العراقيان الأستاذان كوركيس عواد وعبد الحميد العلوجي وساعدت على نشره وزارة الثقافة العراقية .

* « نحو موسوعة علمية » عنوان كتاب ضخم صدر للدكتور أحمد زكي عن دار الشروق وفيه معالجة علمية بأسلوب أدبي رفيع لجوانب من العلوم المختلفة .

كما صدرت عن دار الأهرام « موسوعة الثقافة العلمية » باشراف الدكتور أنور عبد الواحد .

* ظهرت الطبعة الخامسة المنقحة والموسعة من كتاب « قصص العرب » للأساتذة محمد أحمد جاد المولى ومحمد أبو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي ، وهو يقع في أربعة أجزاء ضخام من نشر دار أحياء الكتب العربية . ويضم هذا الكتاب مئات من القصص التاريخية والخلقية والأدبية والنوادر والفكاهات المستخلصة من تراث الضاد مصوغة في قالب ممتع ، وكلها تبرز مآثر العرب وحكمتهم وفضلهم . .

* في التاريخ ظهرت طائفة من الكتب منها : « التاريخ الاسلامي خلال أربعة عشر قرنا » للدكتور ابراهيم الشريقي ونشر مؤسسة نوفل للطباعة والنشر ، و « تاريخ الانبار » للأستاذ علي بن الحسين الهاشمي الخطيب النجفي نشر دار الثقافة ببيروت ، و « تاريخ الفلسفة العربية » للدكتور جميل صليبا وطبع بيروت ، و « تاريخ العمارة الحديثة في القرن العشرين » وهو في أربعة أجزاء للدكتور توفيق أحمد عبد الجواد ونشر مكتبة الأنجلو .

* من الكتب الاسلامية الجديدة : «الذكر الحكيم» للدكتور محمد كامل حسن ونشر مكتبة النهضة المصرية ، و « الاسلام قلعة الانسانية » للأستاذ حامد محمد بدر ونشر المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية ، و « الدعاء » للدكتور محمد السيد طنطاوي وتقديم الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار ونشر مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر ، و « رمضان شهر الذكريات الخالدة » للأستاذ محمد فرج ، نشر المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية .

كما يصدر قريبا عن دار الكتب الحديثة كتاب « الاجتهاد ومدى حاجتنا اليه في هذا العصر » للدكتور سيد محمد موسى توانا الافغانستاني .

* ترجم الدكتوران راشد البراوي ومحمد علي أبو درة والأستاذ عثمان نويه كتاب « تاريخ البشرية » من وضع هيئة اليونسكو فخرج في جزءين كبيرين عن الهيئة المصرية العامة للكتاب .

* في أدب الخواطر ظهرت مؤلفات حديثة منها : « أيام عشتها » للأستاذ عيسى متولي ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطباعة والنشر ، و « ما شاهدت وصورت » للأستاذ قاسم رؤوف ونشر مطبعة البصرة ، و « وجه لبنان ملامح وذكريات » للدكتور علي شلق ونشر مؤسسة نوفل ، و « المدينة » للأديبة جاكلين نحاس وطبع بيروت ، و « شجرة محار » مجموعة من النثر الفني للأديب المغربي الأستاذ محمد الصباغ ونشر وزارة الثقافة المغربية ، و « عاشها كلها » وهي مذكرات الدكتور كاظم الداغستاني ونشر سورية ، و « ظلال وألوان » للأستاذ يوسف سعادة ، و « أجنحه من رصاص » وهي ذكريات أيام الشباب للدكتور سعد الخادم ونشر دار المعارف .

* صدر للدكتور زكي نجيب محمود كتاب نفيس عنوانه « تجديد الفكر العربي » . حاول فيه أن يستنبط اتجاهات فكرية جديدة بعد تحليل الفكر العربي واستقراء جوانبه ، وقد نشرت الكتاب دار الشروق .

* في الفنون المختلفة ظهر كتاب « التطور في الفنون » لتوماس مونرو وقد ترجم في جزءين كبيرين بأقلام الدكتور محمد علي أبو درة والأستاذين عبد العزيز توفيق جاويد ولويس اسكندر وراجعه الأستاذ أحمد نجيب هاشم وصدر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب .

كما ظهر كتاب « فن الزخرفة » للأستاذ حسن علي حمودة من نشر الهيئة العامة للكتاب ، و « الملابس المملوكية » من تأليف ل.م. ماير وترجمة الأستاذ صالح الشيتي ومراجعة الدكتور عبد الرحمن فهمي محمد ونشر الهيئة العامة للكتاب .

* من كتب التراث التي ظهرت أخيرا : « الكفاية في علم الرواية » للمحدث البغدادي تقديم الشيخ الحافظ التيجاني ونشر دار الكتب الحديثة ، و «الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة » وهو في ثلاثة أجزاء للامام الذهبي وقد حققه الدكتور عزت علي عيد عطية والأستاذ موسى محمد علي الموشى وصدر عن دار الكتب الحديثة .

* كما تصدر قريبا الحلقتان الثالثة والرابعة من قسم العراق من كتاب « خريدة القصر وجريدة العصر » للعماد الأصفهاني الكاتب من تحقيق العلامة محمد بهجت الأثري .

* صدرت المجموعة الكاملة لشعر الشاعر الكبير عمر أبو ريشة عن دار العودة ببيروت . كما صدر عن مجلة المراحل في البرازيل « ديوان نصر سمعان » وهو من شعراء المهجر المجيدين وقام بالاشراف عليه والتقديم له الاستاذ رشيد شكور .

وأخرج الشاعر عبد العزيز النعماني ديوان « الأصوات والصدى » عن مؤسسة سجل العرب . هذا ويهيىء الشاعر الكبير محمود أبو الوفا مجموعته الشعرية الكاملة للنشر .

* كتابان في الدراسات الأدبية ظهرا أخيرا هما : « المرأة في القصة العراقية » للأستاذ شجاع مسلم العاني ونشر مديرية الثقافة العامة في العراق ، و « مع ذكرياتنا الكويتية » وهو دراسة في الأدب الشعبي للأستاذ أيوب حسين طبعت في مطبعة حكومة الكويت .

* في السير والتراجم ظهر كتاب « ورقة بن نوفل » للأستاذ عبد العزيز الرفاعي وقد صدر في سلسلة المكتبة الصغيرة في الرياض ، و « نوابغ الفكر الاسلامي » للأستاذ أنور الجندي وقد صدر عن دار الرائد العربي ، وطبعة ثانية من «الامام الحسين» للشيخ عبد الله العلايلي وقد صدرت عن مكتبة التربية بيروت ■

كتب مهداة

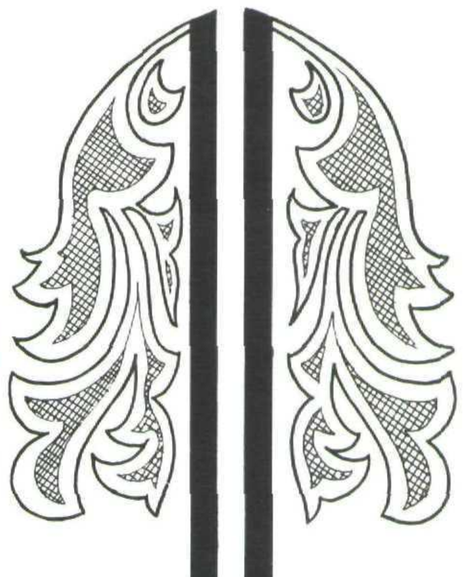
حظيت مكتبة القافلة مؤخراً بالمؤلفات التالية :

* الطبعة الثالثة من كتاب « فهد العسكر.. حياته وشعره » للأديب المعروف عبد الله زكريا الأنصاري ، وهي تتناول تاريخ حياة هذا الشاعر وشعره ، وتحتوي على المزيد من قصائده ومن أشعاره الضائعة بين مختلف الصحف والأوراق ، والهائمة بين رفوف المكتبات وبطون الكتب . . كما تشمل هذه الطبعة فصولا جديدة عن نسبه ومولده وحياته ، وتقع الطبعة في نحو ٣٦٠ صفحة من القطع الكبير ، وهي من نشر مطابع الرسالة في الكويت .

* «الفهرسة الهجائية والترتيب المعجمي» للأستاذ محمد سليمان الأشقر ، وهي رسالة عني فيها المؤلف بابراز المشكلات التي تعترض المفهرسين والمعجمين عند ترتيب المفردات والمركبات في اللغة العربية . . وتقع الرسالة في نحو ١٢٠ صفحة من الحجم المتوسط وهي مذيلة بالمراجع التي إعتمدها المؤلف في إعدادها ، وقد صدرت عن دار البحوث العلميـة بالكويت .

* « حضارة بريئة » للشاعر مجتبى الحسيـني ، وهو ديوان شعري لمجموعة من القصائد الشعرية التي نظمها المؤلف في مختلف المناسبات . . ويقع الديوان في ١٦٠ صفحة من الحجم الصغير ، وهو من نشر دار الصادق في بيروت .

* « علم المكتبات » من إعداد الدكتور يوسف مصطفى القاضي ، وهو كتاب يبحث في نشأة علم المكتبات الحديث وتطوره في العالم عبر العصور المختلفة . ويتضمن أيضاً بحثاً عن الخدمات المكتبية وأنواعها وآداب المكتبة وأصولها . وهو مزود بثبت بالمراجع العربية والأجنبية التي اعتمدها المؤلف . وقد تم طبعه في مؤسسة الجزيرة للصحافة والطباعة والنشر ■



آخر الحواضر الأ

غرناطة

ثلاث مدن اسبانية ما زالت تعتبر حتى اليوم ، أعلاما بارزة للأندلس القديمة ، أو الأندلس المسلمة ، هي قرطبة عاصمة الخلافة الأموية القديمة ، وأشبيلية قاعدة الحكم الموحدي ، وغرناطة آخر الحواضر الاسلامية الذاهبة .

وغرناطة هي صغرى المدن الثلاث ، ولكنها أشهرها من الناحيتين التاريخية والأثرية ، وأكثرها احتفاظا بالطابع الأندلسي الأصيل ، والتقاليد الأندلسية العريقة ، واذا كانت قرطبة ما زالت تزهو بجامعها الأموي الأعظم ، وأشبيلية ما زالت تزهو بمنارتها الموحدية الشهيرة (الخيرالدا) ، فان غرناطة تستطيع أن تزهو بحمرائها الغراء ، وهي التي يعتبرها البعض أجمل الآثار الأندلسية الباقية وأعظمها .

ثم أن غرناطة تمتاز من الناحية التاريخية بأنها آخر الحواضر الأندلسية الذاهبة . فقرطبة سقطت في أيدي القشتاليين (الاسبان) سنة ٦٣٣هـ (١٢٣٦م) وسقطت أشبيلية في أيديهم في سنة ٦٤٦هـ ، (١٢٤٨م) . ولكن غرناطة ، غدت بعد ذلك قاعدة لمملكة اسلامية جديدة ، قامت في جنوبي الأندلس ، وعاشت في ظل ملوكها من بني الأحمر أو بني نصر أكثر من قرنين آخرين ، حملت خلالهما مشعل الحضارة الأندلسية وضاء ، ولبثت تذود عن حياتها وعن تراثها الديني والحضاري ، بكل عزم واباء ، حتى سقطت في النهاية في يد الملكين الكاثوليكيين « فرناندو » و « ايسابيلا » في الثاني من شهر ربيع الأول سنة ٨٩٧هـ الموافق ٢ يناير سنة ١٤٩٢ ، وهي السنة نفسها التي اكتشف فيها « كولومبوس » العالم الجديد ، وبسقوطها انتهت دولة الاسلام في الأندلس بعد أن عاشت في شبه الجزيرة الاسبانية زهاء ثمانية قرون .

وهكذا فانه لم يمض حتى يومنا على سقوط غرناطة ، آخر الحواضر الأندلسية الذاهبة ، سوى زهاء خمسة قرون . ولكنها بالرغم مما توالى على الأمة الأندلسية المغلوبة ، وعلى آخر الحواضر الاسلامية ، من صروف الزمن ومن ضروب التغيير والتبديل ، فان غرناطة استطاعت خلال هذه القرون الخمسة ، أن تحتفظ بكثير من خططها وآثارها ومعالمها وتقاليدها الأندلسية .

ولغرناطة منزلة خاصة في نفوس الاسبان وفي التاريخ الاسباني فهي تعتبر بتاريخها المؤثر أنبل المدن الأندلسية ، ويعتبر سقوطها في أيدي الاسبان ، فاتحة عصر اسبانيا الذهبي . ومن ثم فقد نالت غرناطة حظوة خاصة من ملوك اسبانيا اللاحقين وفي مقدمتهم الامبراطور « شارلكان » الذي أنشأ جامعتها الشهيرة .

وقد قامت مدينة غرناطة أو (إغرناطة) كما تسمى أحيانا ، مكان مدينة البيرة الرومانية القديمة بعد أن عفت عليها أحداث الزمن ، ونمت شيئا فشيئا ، حتى غدت هي قاعدة كورة البيرة . وغرناطة وهي بالاسبانية « Granada » ومعناها « الرمانة » ، وهي شعارها التاريخي الذي ما زال ماثلا على باب مدينة الحمراء الرئيسي في شكل ثلاث رمانات صخرية كبيرة . ولم يفت هذا المعنى الجغرافيين المسلمين ، فنرى « ياقوت الحموي » يقول عند ذكر غرناطة : « ومعنى غرناطة رمّانة بلسان عجم الأندلس ، سمي البلد لحسنه بذلك » .

ومدينة غرناطة هي عاصمة الولاية الأندلسية التي تحمل هذا الاسم ، وهي تقع في واد عميق يمتد من المنحدر الشمالي الغربي لجبال « سييرا نفادا Sierra Nevada » أو جبال الثلج ، وتظللها الاكام العالية من الشمال والجنوب تغطيها الثلوج البيضاء صيفا وشتاء ، ويحدها

١ – مدخل الفندق أو فناء الفحم ، وهو من المعالم الأثرية لغرناطة الأندلسية ، وقد نقش في عقده بالكوفية « قل هو الله أحد » .. ويرجع انشاؤه الى أواخر عهد الدولة النصرية ..

٢ – أحد الدهاليز المعقودة ذات الطابع الاسلامي ، يفضي الى فناء واسع يعج بالحركة التجارية .. ويبدو في الصورة بعض الواجهات الأنيقة وقد اجتذبت أنظار السواح والزوار ..

...يـة بالأندلـس

بقلم الاستاذ محمد عبد الله عنان


٢

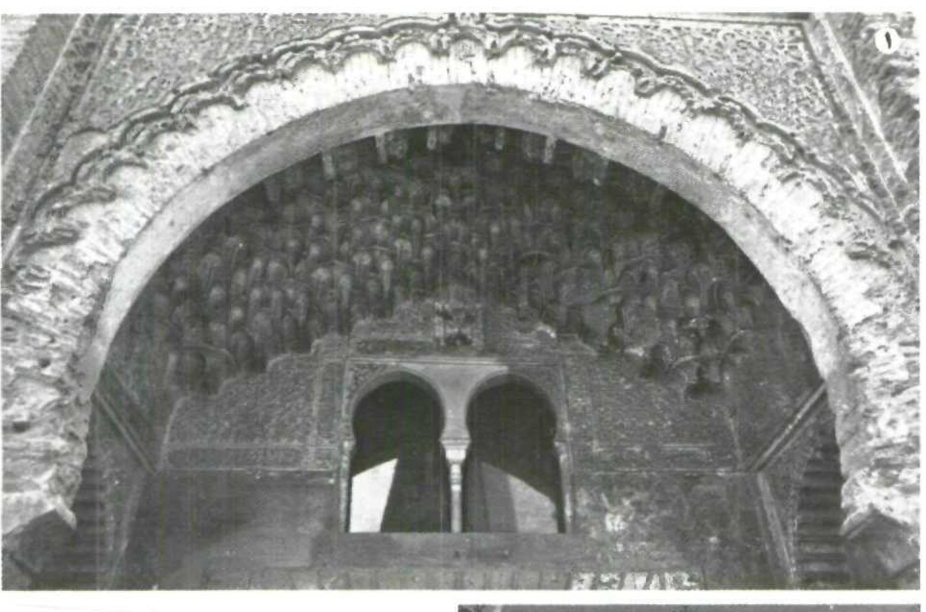


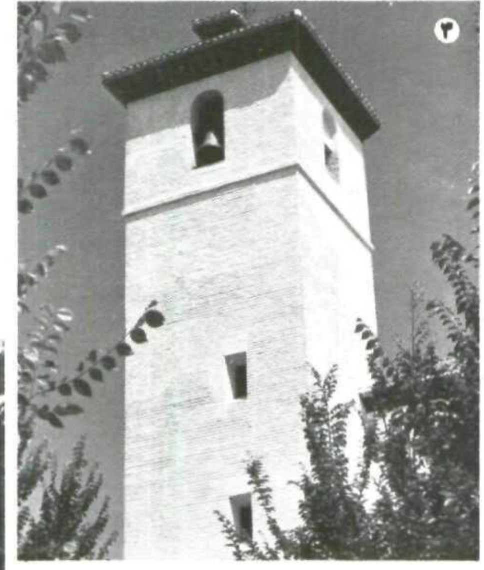
من الجنوب نهر «شنيل» فرع الوادي الكبير . ويخترق فرعه المسمى نهر «حدرة» المدينة في الوسط، والى يمينه يقع حي البيازين أشهر أحياء غرناطة القديمة . وتقع مدينة الحمراء على ربوتها المرتفعة في الناحية الأخرى ، ولكن نهر «حدّره» الصغير الذي كان يجري داخل المدينة من سفح ربوة الحمراء ، حتى يتصل بنهر «شنيل» عند قنطرة «شنيل» ، يكا ديختفي اليوم ، ولم يبق من مجراه داخل المدينة سوى جزء صغير تشرف عليه ربى الحمراء ، وعلى ضفافه بقايا قناطر وسواقي قديمة ، وأما جزؤه الذي كان يخترق وسط المدينة ، فقد غطي اليوم بشارعها الرئيسي المسمى شارع الملكين الكاثوليكيين ، وامتداده من الميدان الكبير المسمى «بويرتا ريال – Puerta Real» حتى قنطرة شنيل .

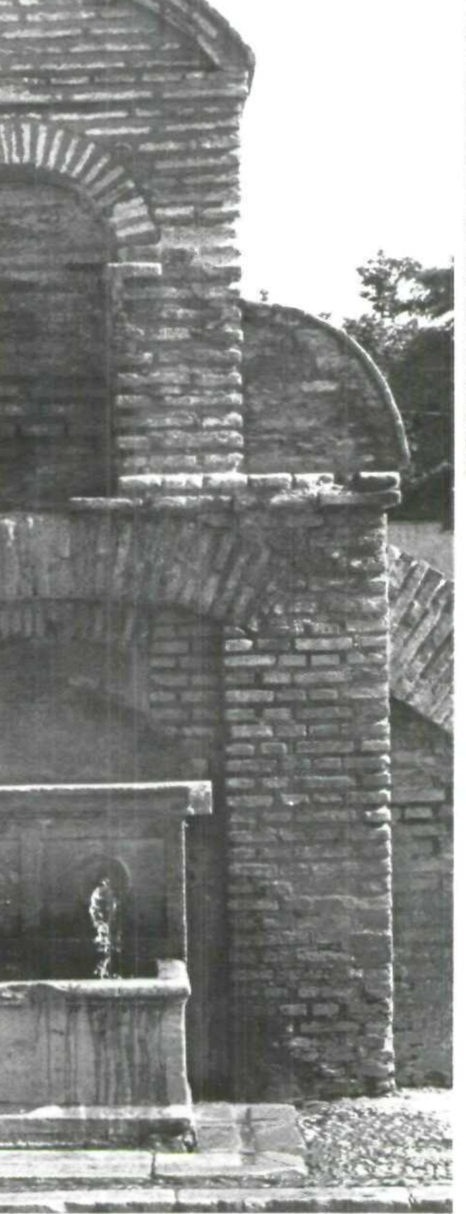
ويبلغ سكان غرناطة اليوم نحو مائة وثلاثين ألف نسمة . وقد كانت أيام الدولة الاسلامية أكبر رقعة ، وأوفر عمرانا وسكانا . وكانت تضم من السكان أكثر من مائتي ألف نسمة . ولما ضعفت مملكة غرناطة ، وأخذت أطرافها تسقط تباعا في أيدي الاسبان ، وهرع كثير من سكان المدن المفتوحة الى العاصمة الاسلامية من كل صوب ، تضاعف سكان غرناطة حتى غدوا في أواخر عهدها الاسلامي زهاء نصف مليون . ولما سقطت غرناطة في أيدي الاسبان ، وغادرها عشرات الألوف من أهلها المسلمين الى المغرب ، كان عدد سكانها نحو مائتي ألف . ثم تضاءل هذا العدد تباعا بالهجرة والاضطهاد والتشريد . ثم نفي سكانها العرب المتنصرون بعد ذلك ، وأقفرت العاصمة الاسلامية القديمة تباعا ، حتى هبط سكانها في القرن الثامن عشر الى عشرين ألف نسمة . ثم عادت تنتعش شيئا فشيئا، ويزيد عدد سكانها تباعا حتى بلغوا حسبما قدمنا مائة وثلاثين ألفا .

وتشرف غرناطة من ناحية الجنوب الشرقي على بسيط خصب أخضر هو المرج الشهير أو الفحص «La Vega» وقد كان أيام الدولة الاسلامية قطعة من الجنان تغص بالزروع اليانعة والحدائق الغناء ، وكان مرتع النزهة والأسمار أيام الربيع وليالي الصيف ومستقى خصبا لوحي الشعراء ، أما اليوم فقد عفت معالمه ومغانيه اليانعة، وانك لتسرح البصر فيه من مشارف الحمراء العالية ، فلا ترى من بسائطه الخضراء سوى القليل .

هذا، وقد اختفت اليوم معظم خطط غرناطة الاسلامية ، وقامت على أنقاضها مدينة أوروبية









١ – الجزء العلوي من مدخل دار الفحم تحليه النقوش الاسلامية البديعة ..

٢ – ميدان باب الرملة ، ويسمى اليوم بالاسبانية « Bibrambla » من أبرز معالم غرناطة الاسلامية، وهو يقع على مقربة من الكتدرائية، ويعتبر من أكبر ميادين غرناطة ، وفي وسطه نافورة كبيرة مزدوجة ، ومن حولها ساحة كبيرة مغطاة بالرخام ، وعلى جانبيها المقاهي ومظلات بائعات الزهر ..

٣ – أحد أبراج كتدرائية غرناطة الواقعة على مقربة من ميدان باب الرملة والقيسرية ، وقد بنيت في عهد الامبراطور «شارلكان» في أواسط القرن السادس عشر .

٤ – أحد أحواض الماء التي كانت تعرف بـ(السبيل) المنتشرة في أنحاء مختلفة من مدينة غرناطة القديمة.

٥ – يعتبر باب P. de Elvira من أبواب غرناطة الاسلامية ، ويقع اليوم على مقربة من مسرح الثيران .



حديثة، ولم تبق من منشآتها ومعالمها القديمة سوى بقية يسيرة، تجتمع بالأخص في قسمها الشرقي، حيث تربض الحمراء فوق هضبتها العالية، وفي قسمها الغربي حيث يقع حي البيازين. وفضلا عن ذلك فان السائح المتأمل يشعر حينما يسرح البصر في جنباتها، انها تتسم بطابع خاص من التحفظ والنبل، وأن معالمها القديمة تكاد تطالعه من وراء مظاهرها المحدثة، وأن هذه الأحياء التي تتشابك فيها الدروب الضيقة، وهذه المنازل التي تمتاز بالأفنية الداخلية وتزدان بالمشرفيات العربية، هي بلا شك عنوان المدينة الأندلسية العريقة.

ويمكننا أن نضع أمام القارئ صورة سريعة من خطط غرناطة الحالية، فشارعها الرئيسي الذي يشقها من الوسط هو شارع «الملكين الكاثوليكيين – Calle de los Reyes Catolicos» ويبدأ من «الميدان الجديد – Plaza Nueva» الذي يتفرع منه مرتفع «بني غمارة – Cuesta de Gomeres» المفضي الى هضبة الحمراء، وينتهي من الناحية الأخرى بميدان «الباب الملكي – Puerta Real» ومن هذا الميدان يمتد جنوبا حتى النهر طريقان شاسعان متوازيان تفصلهما الحدائق، هما طريق «شنيل»، وطريق «حَدَرّه». وتقع على جانبي شارع الملكين الكاثوليكيين أهم أحياء غرناطة، ومنها في الجهة اليمنى: ميدان «باب الرملة - Plaza Bibrambla» أشهر ميادين غرناطة القديمة، والقيسرية القديمة بدروبها الضيقة، ومتاجرها التي ما زالت تحمل الطابع الشرقي، وبقايا المدرسة الاسلامية القديمة والكنيسة العظمى، التي أقيمت فوق موقع الجامع الأعظم. ويمتد من الميدان الجديد شارع غرناطة القديم على ضفة نهر «حَدَرّه» الى حي البيازين، ثم بعد ذلك الى خارج المدينة حيث يفضي الى حي «الغجر» ثم الى دير «ساكرومونتي»

ويخرج من منتصف شارع «الملكين الكاثوليكيين» شارع «كولون الكبير - G.V. Colon» وهو من أهم شوارع غرناطة وأحدثها، ويقع على جانبه «مسرح الثيران»، وعلى مقربة منه يقع ميدان باب البيرة، وهو من أشهر أبواب غرناطة الاسلامية.

معالمها وآثارها الباقية

تعتبر مدينة الحمراء، بلا ريب، أعظم معالم غرناطة الأندلسية الباقية وأروعها، وهي ما زالت كما كانت منذ عصور تشرف بأبراجها وقبابها المنيفة من هضبتها العالية على المدينة

الاسلامية القديمة . والى يمين الحمراء وعلى مقربة منها، يقع قصر «جنة العريف» بأروقته الأنيقة، وخمائله المزهرة، ونوافيره الفضية الرائعة .

وأول معالم غرناطة الأندلسية وأشهرها هو حي «البيازين – Albaicin» الشهير، وهو كما كان في القديم أكبر أحياء غرناطة الشعبية وأشهرها . وهو يقع تجاه هضبة الحمراء، ويفصله عنها نهر «حَدَّره»، ويمتد صاعدا على سطح التلال حتى أسوار المدينة القديمة . وتخترقه شبكة كبيرة من الدروب الضيقة، وما زال الكثير من منازله محتفظا بطرازه الأندلسي، وهي تمتاز بأفنيتها الداخلية، ونوافذها العربية المطلة عليها، وأحيانا بأشجار النخيل والنارنج المفروشة حول نافورة المياه القائمة في وسط الفناء، ومنها بالفعل منازل أندلسية أثرية ما زالت تحتفظ بنقوشها وزخارفها الاسلامية .

وفي حي البيّازين ثلاثة من أبواب غرناطة الاسلامية ما زالت قائمة بعقودها العربية، وهي: باب البيازين، ويقع في نهاية الحي في داخل السور القديم، وباب «فحص اللوز -- P. de Fajalauza»، وباب «الزيادة - P. de los Pesos»، وكلاهما ذو عقدين ويقعان داخل الحي نفسه .

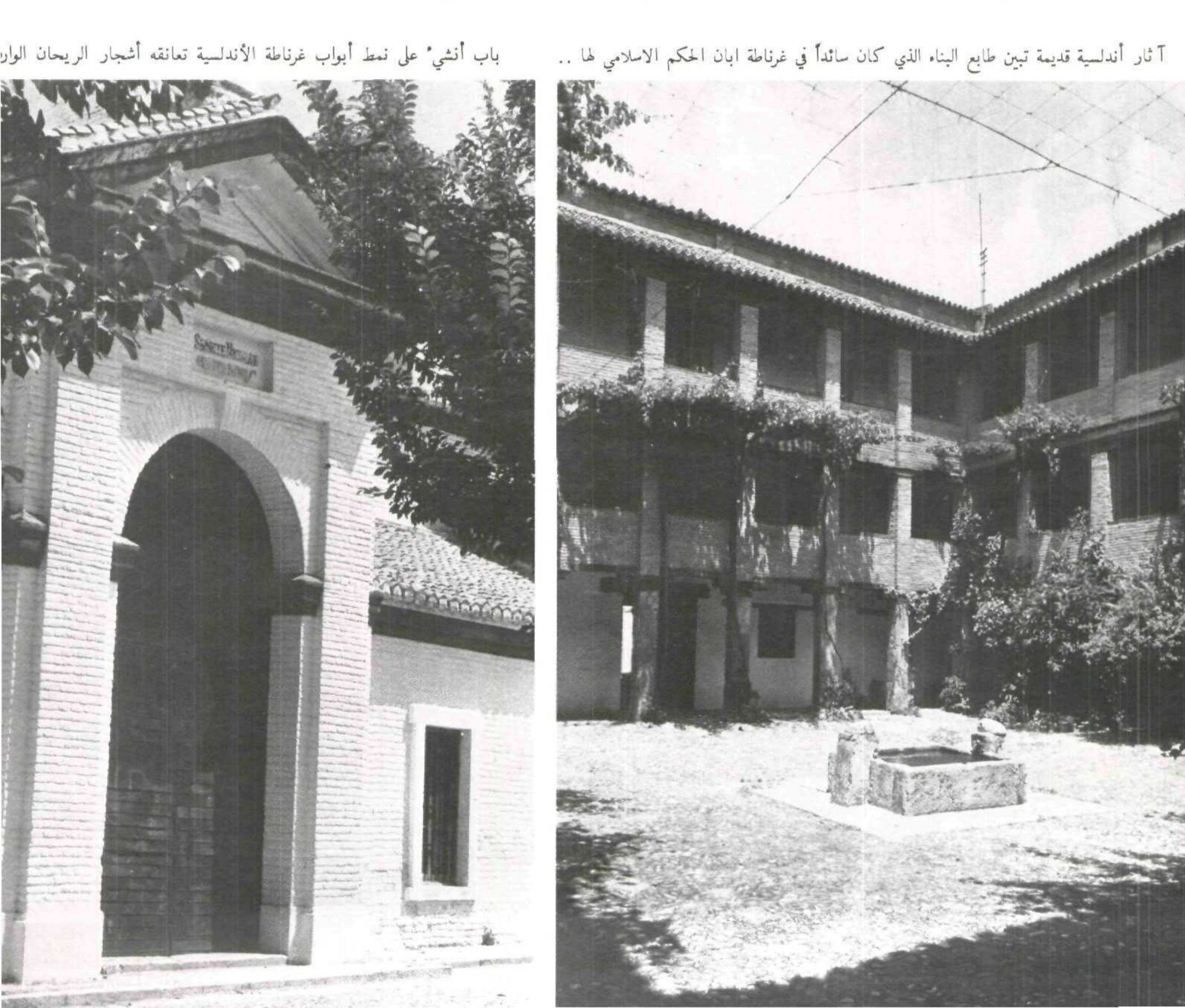
وقد حول جامع البيّازين الى كنيسة بنيت فوق أنقاضه تسمى كنيسة «سان سالفادور – San Salvador»، وما زالت في مؤخرتها ثمة بقية من أسوار الجامع وعدة من بوائكه وجزء من صحنه . وأقيمت كنيسة «سان خوسي» على أنقاض مسجد المرابطين، وقد كان من أقدم مساجد غرناطة وما زالت منارته قائمة، وقد حولت الى برج لأجراس الكنيسة .

حي البيازين فوق ربوته القائم عليها ويمتد شمالا حتى الأسوار القديمة وفي نهايته توجد شبكة من الدروب الضيقة على المنحدر يسكنها قوم من الغجر يعيشون في أكواخ وكهوف بدائية. وهؤلاء الغجر يؤلفون أقلية كبيرة في غرناطة ويشغلون، فضلا عن مؤخرة حي البيازين، معظم جانب الطريق الطويل الممتد من غرناطة الى دير «ساكرومنتي»، ولكن مساكنهم في هذا الجانب أفضل، وظروفهم المعيشية أرقى، ويشتغل الكثير منهم بالعزف والرقص . ولهم براعة خاصة في تأدية الرقصة الأندلسية الشهيرة (الفلامنكو)، وتعرف حفلاتهم التي يهرع الى شهودها زوار غرناطة، بـ«الثامبرا - La Zambra» وهي محرفة من أصلها العربي «الزمر» .

وحي البيّازين شهير في تاريخ غرناطة الاسلامية . وقد كان دائما من أكبر أحيائها، وكان منزل عدد كبير من الأسر الغنية . وفيه نشبت الثورة غير مرة ضد سلاطين غرناطة . وهو اليوم منزل الطبقات المتوسطة والمتواضعة، ولكنه ما زال محتفظا بسمعته التاريخية القديمة، وما زال يعتبر من أهم أحياء غرناطة .

آثار أندلسية قديمة تبين طابع البناء الذي كان سائداً في غرناطة ابان الحكم الاسلامي لها ..

باب أنشي، على نمط أبواب غرناطة الأندلسية تعانقه أشجار الريحان الوار



والموضع الثاني من معالم غرناطة الاسلامية هو ميدان باب الرملة ، ويسمى اليوم بالاسبانية « Bibramla » ، وقد كان أعظم ميادين غرناطة الاسلامية ، وكانت تعقد بـه الاجتماعات والحفـلات القومية العامة ، ولا سيما حفلات الفروسية ، وهو يقع على مقربة من الكنيسة العظمى ، وراء شارع « الملكين الكاثوليكيين » ، ومـا زال الى اليوم – بالرغم من تغيير معالمه القديمـة – يعتبر من أكبر ميادين غرناطـة وفي وسطه نافورة كبيرة مزدوجة ، ومن حولهـا ساحة كبيرة مغطاة بالرخام ، وعلى جانبيها المقاهي ومظلات بائعات الزهـر وغيرذلك ، ويتفرع منه عدة شوارع ما زالت تحمل أسماء اندلسية ، مثل شارع « السكتين – Zacatin » وشـارع « أبو عبـد الله – Boabdil » وغيرهما .

وفي مواجهة باب الرملة من الجهة الغربية ، تقع « القيسرية » الشهيرة ، وقد كانت سوق غرناطـة الممتازة – وما زالت الى اليوم – بدروبها الضيقة ، وحوانيتها المتلاصقة ، التي تزخر بالأقمشة الحريرية ، والتحف المعدنية الدقيقة ، وغيرها من مختلف السلع الممتازة ، تحمل طرازها الأندلسي القديم نفسه .

ومن معالم غرناطة وآثارها الأندلسية الباقية « كتدرائية غرناطة » ، وتقع على مقربة من ميدان باب الرملة والقيسرية . وقد أقيمت فوق مسجد غرناطة الجامع ، وهي بناية ضخمة بنيت في عهد الامبراطور « شارلكان » في أواسط القرن السادس عشر . وأنشئ في داخل الكتدرائية مدفن للملكين « فرناندو » و « ايسابيلا » ، وعند مدخل المدفن يوجد معرض تاريخي لمخلفات هذين الملكين الاسبانيين .

وما زال موقع مدرسة غرناطة القديمة قائما في الدرب الضيق المحاذي لشارع الملكين الكاثوليكيين تجاه المدفن الملكي ، ولكن بناءها القديم أزيل منذ أوائل القرن الثامن عشر ، وأقيم مكانه بناء جديد ، ولم يبق من البناء القديم سوى الجناح الذي يحتوي على المحراب . وقد نزعت لوحات ونقوش عربية كثيرة من البناء القديم ونقلت الى مختلف المتاحف ، ويحتفظ متحـف غرناطة الأثـري بعدد كبير من هذه اللوحات ، ومن بينها قطع رخامية عـديدة يتكون منها بعض ما جاء في لوحة انشاء هذه المدرسة ، وفيها أن الذي قام بانشائها هو السلطان أبو الحجاج يوسف النصري وذلك في شهر محرم عام خمسين وسبعمائة (١٣٤٩م) .

وقد كانت هذه المدرسة أو الجامعة من مفاخر غرناطة الاسلامية ومن مفاخر بني نصر ، وكانت تسمى بالمدرسة النصرية أو الجامعة النصرية .



أحياء التجارية المهمة في غرناطة الأندلسية وقد بدت واجهاتها الأنيقة بعقودها العربية الطراز .


احدى الواجهات الشاهقة التابعة لكتدرائية غرناطة الضخمة .



والى جانب هذه المعالم الرئيسية لغرناطة الأندلسية ، توجد عدة آثار ومعالم أخرى ، منها الخان أو الفندق الواقع في درب ضيق ، يقع في الناحيةاليسرى لشارع الملكين الكاثوليكيين ، وهو عبارة عن بناء أندلسي قديم ذي باب معقود ضخم ، قد نقشت في عقده بالكوفية « قل هو الله أحـــد » . ومن داخل هذا الباب دهليز يفضي الى فناء واسع مربع الشكل ضلعه نحو ثلاثين مترا ، وبه قاعات عديدة ، وفي أعلاه جناح آخر تتقدمه فوق عقد الباب قاعة ذات مشرفية عربية كبيرة .

وقد اختلف في أصل هذا البناء، والمرجح أنه أنشئ في أواخر عهد الدولة النصرية ليكون فندقا أو خانا يؤمه التجار الواردون . ثم استعمل بعد ذلك مخزنا للفحم . ومن ثم كان اسمه الذي يعرف به اليوم وهو « دار الفحم — Casa del Carbon » .

ومن الآثار الأندلسية الباقية بغرناطة ، بقية الصرح المسمى «بقصر شنيل - Al Cazar Genil»، وهو يقع خارج المدينة على الضفة اليسرى لنهر «شنيل»في بقعة خضراء منعزلة تسمى ضاحية «أرميليا» أو «حدائق الملكة»،وهو عبارة عن بقية بناء ذي باب عربي معقود على رأسه رقعة نقش عليها شعار بني نصر « ولا غالب الا الله » . ويتلو هذا العقد مدخل يفضي الى بهو مربع به أربعة عقود جميلة ، في كل جانب عقدان ، وله قبة عالية مزينة بالمقرنصات على مثل زخارف قبة بهو بني سراج بقصر الحمراء ، ويبلغ ارتفاع القبة نحو اثني عشر مترا ، وقد نقشت على جوانب البهو في رقاع عدة العبارة الآتية : « عز لمولانا السلطان » كما نقش شعار بني نصر « ولا غالب الا الله » مكررا في الحزام الأخير حول المربع . والمرجح في شأن هذا الأثر أنه بقية من قصر «شنيل» أو « قصر السيد » الذي أنشأه الأمير الموحدي «اسحق ابن الخليفة أبي يعقوب يوسف» في سنة ٦١٥هـ (١٢١٨م) خارج غرناطة على مقربة من نهر شنيل .

هنا ، ولم يبق من أبواب غرناطة الاسلامية، سوى القليل، منها : أبواب حي البيازين الثلاثة التي سبقت الاشارة اليها ، ومنها باب «البيرة الكبير — P. de Elvira»، الواقع في شمال غربي المدينة ، وهو يقع اليوم على مقربة من مسرح الثيران ، وقد بقي هيكله كاملا على ارتفاع نحو اثني عشر مترا والى جانبه بقية من السور القديم، ثم باب «البنيدة» وهو يقع على مقربة من شرق باب «البيرة»، ثم «باب سيدة»، وهو شرقي باب «البنيدة». وكلها تقع على خط الأسوار الشمالية القديمة .

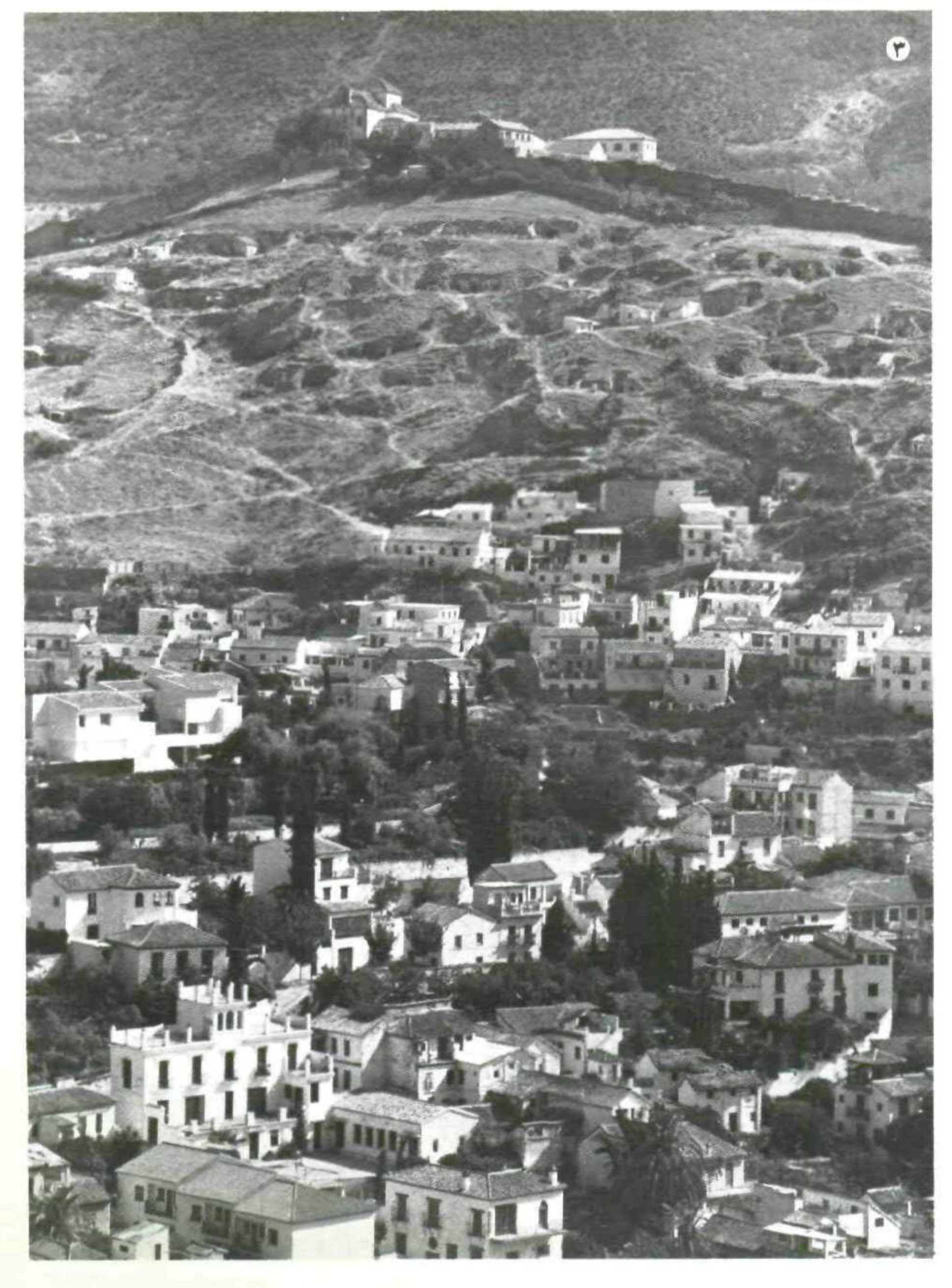
وأما أسوار غرناطة الاسلامية ، فقد بقيت منها أجزاء كبيرة ، وبالأخص في الجهة الشمالية الغربية حيث تمتد نحو كيلومتر ، وتنقطع قبل باب البيرة بقليل . وكذلك بقيت أجزاء كبيرة من الأسوار الشرقية . وهي أسوار متينة كثيفة تتكون من صفين داخلة وخارجة . وتدل بقاياها على متانة التحصينات الغرناطية القديمة.

والى جانب هذه المعالم المادية لغرناطـــة الاسلامية ، فانه توجد المعالم الأدبية وهي الماثلة في المجتمع الغرناطي ، وفي حياته وتقاليده . وذلك أن السائح المتأمل ، والسائح العربي بنوع خاص يشعر أثناء تجواله بشوارع غرناطة ، أنه يجوس خلال مجتمع يمت بأوثق الصلات العنصرية الى الأمة الأندلسية الذاهبة ، فالوجوه عربية

١ — أحد الأحياء السكنية في غرناطة التي تمتاز بأفنيتها الداخلية ومنافذها العربية الطراز وبأشجارها الوارفة الظلال ..

٢ — مجموعة أخرى من دور السكن الأندلسية الطراز في غرناطة وقد بدت بسطوحها المقببة وشرفاتها المعقودة..

٣ — منظر لمدينة غرناطة الاسلامية تظللها الآكام العالية والأشجار الوارفة فتضفي عليها ذوبا من الجمال والأبهة ..

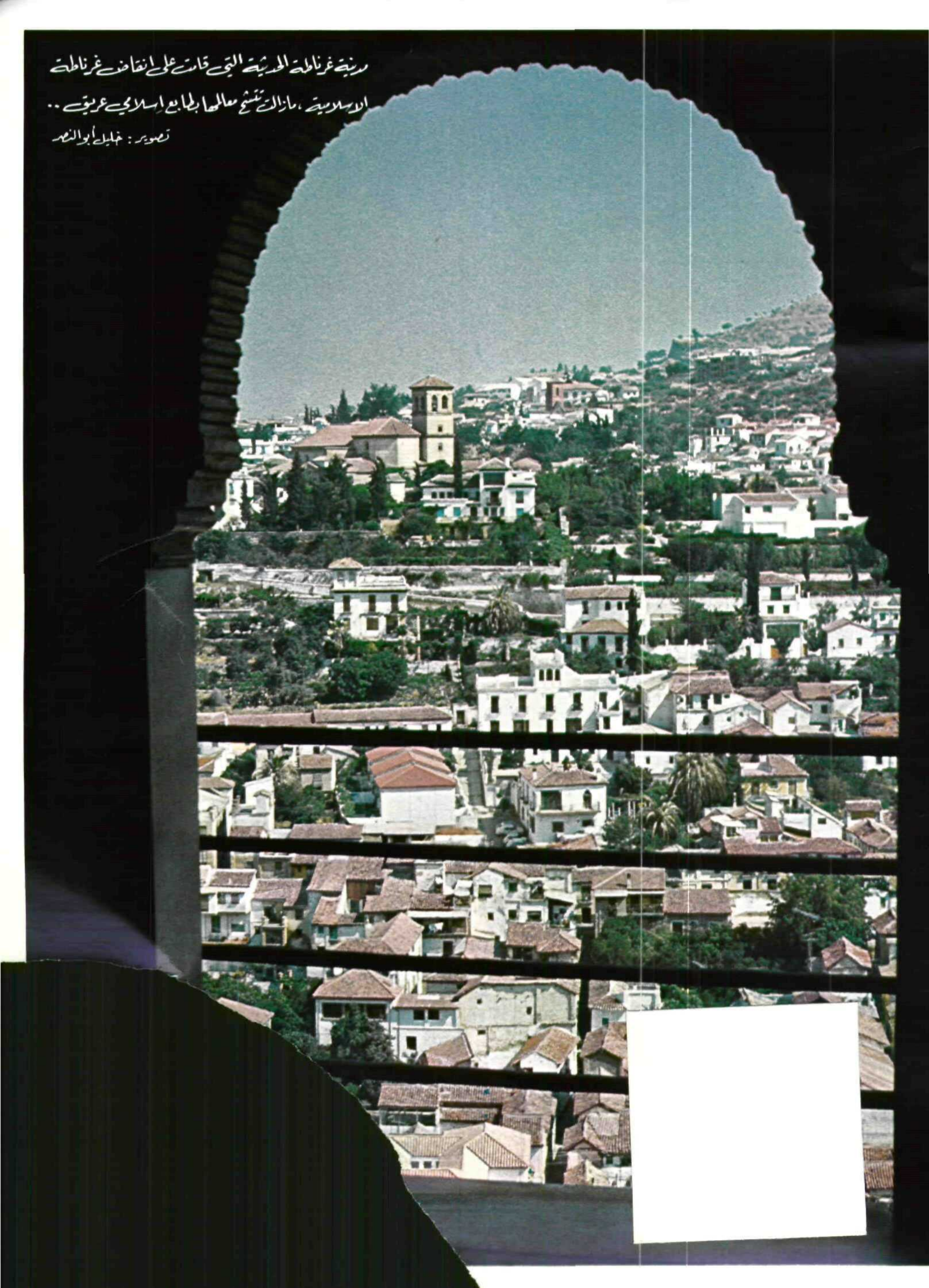


بعض المنازل الأندلسية الطراز المنتشرة في مدينة غرناطة تزينها الأشجار السامقة والحدائق المو
تصوير : خليل أبو النصر



سمراء ، والملامح دقيقة ، والشعور فاحمة ، والعيون سوداء . ونساء غرناطة المعاصرة هن هن اللاتي وصفهن «ابن الخطيب» في عصره، أعني في القرن الرابع عشر الميلادي ، ما زلن يبدين نفس أوصافه ، من الحسن ، واسترسال الشعور ، وحسن المحاورة ، والقدود المتوسطة . والى جانب هذه الخواص العنصرية والمادية توجد ثمة طائفة كبيرة من الخواص الأدبية التي تبدو في كثير من الصفات الاخلاقية والتقاليد والعادات ، التي ترجع في معظمها الى التقاليد الأندلسية ، وذلك سواء في مظاهر الحياة أو العلاقات الشخصية مثل التحيات والمعاملات ، وفي الطعام وفي الفنون ، ولا سيما الرقص والغناء وغير ذلك من مظاهر الحياة الاجتماعية . هذا كله مما يبعث في السائح المتأمل شعورا قويا بأن المجتمع الغرناطي الحاضر يحمل آثارا عميقة من ملامح الماضي البعيد ، ماضيه الاسلامي الأندلسي .

وقد كانت مملكة غرناطة ، طوال حياتها ، التي استطالت أكثر من قرنين ، مستودع العلوم والآداب الأندلسية وكانت وريثة لتراث الأندلس الكبرى الفكري ، تحمل مشعل العلوم والحضارة الأندلسية ساطعا وضاء ، وكانت عاصمتها غرناطة ، هي قرطبة الصغيرة ، وهي أشبيلية الصغيرة ، واذا كان المقام لا يتسع لأن نتحدث هنا عن الحركة الفكرية الأندلسية في العصر الغرناطي ، فاننا نستطيع أن نذكر على الأقل بعض الأسماء اللامعة التي يقترن بها تراث غرناطة الأدبي وفي مقدمتهم : ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب السلماني ، السياسي والكاتب والشاعر الكبير ، المتوفى سنة ٧٧٦هـ (١٣٧٤م)، والذي ملأ الأندلس في عصره بروائع منثورة ومنظومة ، ورسائله السلطانية . ومنهم أيضا الوزير ابن الحكيم اللخمي المتوفى سنة ٧٠٨هـ (١٣٠٨م) ، وابن الفخار الألبيري المتوفى سنة ٧٥٤هـ (١٣٥٣م) ، وقد كان شيخ النحاة في عصره . وكذلك الفيلسوف الطبيب أبو زكريا بن هذيل المتوفى سنة ٧٥٣هـ (١٣٥٣م)، وابن زمرك الشاعر الكبير المتوفى سنة ٧٩٩هـ (١٣٩٧م) ، وابن فرحون اليعمري المتوفى سنة ٧٩٩هـ (١٣٩٧م) وهو صاحب المرجع الشهير «الديباج المذهب» ، وأبو بكر بن عاصم صاحب «تحفة الأحكام» المتوفى سنة ٨٣٩هـ (١٤٢٦م)، وكثيرون غيرهم من أقطاب العلوم والآداب ■



مدينة غرناطة الحديثة التي قامت على انقاض غرناطة الاسلامية، مازالت تتشح معالمها بطابع اسلامي عريق..

تصوير: خليل أبو النصر

